٢٧

مجلة
روايات أحلام

فراشة المحبة

بوابة الدموع

مجلة روايات أحلام

فراشة المحبة

بوابة الدموع

من قلب العتمة تولد أحياناً شمعة تبدد بنورها حُجُب اليأس. سابينا استسلمت للحزن عندما علمت بموت أختها وزوجها في حادث طائرة، ثم عاد الفرح يهدهد قلبها المثقل بالأسى لخبر نجاة ابن أختها.

لكن باتريك كيندل يرفض التخلي عن الطفل بأي ثمن، وكل محاولاتها لاحتضانه اصطدمت بهذا الرجل المتعجرف مع نفوذه الواسع وثرائه واحتقاره لها.

فهل يمكن أن يكون الحل الوحيد هو بالزواج من باتريك؟ ألن تكون بهذا كمن يهرب من حرارة الجمر إلى لهيب النار؟

لبنان ١٥٠٠ ل. ل.	الإمارات ٦ د	مصر ٤ ج.	تونس ١ د.
سوريا ٥٠ ل. س	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د	اليمن
الأردن ٦ د	البحرين ٦٠٠ ف	تونس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب	العراق

فراشة المحبة

١ ـ ما العمل؟

عادت سابينا بيرنت إلى غرفة ملابسها مرهقة... فتحت الراديو فانبعثت منه موسيقى هادئة أراحت أعصابها، أثناء تبديلها ملابس التمثيل بملابسها الخاصة المؤلفة من جينز وقميص برتقالي حريري.

سابينا فتاة طويلة، ممشوقة القوام، مسترسل شعرُها. مشطته حتى أحست به يتموج نحاسياً فوق كتفيها بحرّية طبيعية.

دخل إلى الغرفة طوني كريغ بعد دقة خفيفة على الباب:

ـ لقد كنت رائعة اليوم!

قبلها على خدها، فبادلته القبلة، هي سعيدة برؤيته. طوني يلعب دور شقيق زوجها في المسلسل التي تمثله للتلفزيون وهما يلتقيان كل يوم خارج أوقات العمل منذ أربعة أشهر. إنه طويل، أشقر، له جسد رشيق كجسد لاعب كرة سابق... وكان محط أنظار النساء ومثالهن.

ابتسمت سابينا له، وذراعاها حول عنقه.

ـ ما رأيك بالذهاب إلى منزل الشاطىء الليلة؟

ـ جيد... ما رأيك بالشواء عِشاء على الشاطىء؟

ـ رائع.

www.liilas.com

استدارت تلتقط حقيبتها... لكن يدّها تسمّرت عند سماعها المذيع في الراديو يقول:

«... وعُرف أن كيم برنت وزوجها تشارلز كيندل كانا في الطائرة التي تحطمت الليلة الماضية وهي في طريقها من باريس إلى لوس انجيلوس... وهناك تأكيدات أن ما من أحد نجا من هذه الحادثة، التي يعتقد أنها ناجمة عن عطل في المحركات».

بالنسبة لسابينا... العالم توقف... كيم وتشارلز...! لا يمكن... لا بد أن هناك غلطة... سابينا هي من أصرت على أن تلد شقيقتها الطفل في أميركا... فكيم في شهرها السابع الآن. يا إلهي... الطفل كذلك... لا...!...

لم تدرك أنها تلفظت بآخر كلماتها بصوت مرتفع إلى أن تقدم طوني ليمسكها:

ـ تماسكي يا حبيبتي!

أجلسها في أحد المقاعد الوثيرة في الغرفة.

ـ طوني... هل سمعت... هل قال المذيع...

فرد عليها بأسى، وكل اهتمامه منصب على وجهها الذي شحب حتى الابيضاض.

ـ أجل... لقد سمعت سابينا.

ـ يا إلهي!... كيم...!

شهقت بقوة. فصدمتها الشديدة وقعت على نفسها وقعاً كبيراً جعلها تعجز عن البكاء فقد خدّر الرعب إحساسها... شقيقتها...! هل هذا ممكن!... لماذا تخدع نفسها، هل هناك أي نجاة من كوارث كهذه في الماضي؟... والداها...

يجب أن تخبرهما!

طمأنها طوني بعد أن تلفظت ثانية دون وعي بما تفكر فيه:

ـ سنتصل بهما بعد قليل...

وركع أمامها يواسيها في المصاب.

كيم... شقيقتها التي تكبرها بعامين ذات الشعر الأشقر النحاسي الشبيه بشعرها والطبع الناري المماثل... لا يمكن أن تموت! تحطم الطائرات لا يحدث سوى في الأفلام... لأناس آخرين... وعائلات أخرى... لا لزوجين شابين سعيدين مرحين مثل كيم وتشارلز... أو لطفل لم يولد بعد!

كانت كيم أيضاً ممثلة ناجحة مثلها حتى عامين مضيا عندما تزوجت من تشارلز كيندل... رجل الأعمال البريطاني الذي وقع في حبها عندما التقيا في باريس... الزواج كان بعيداً عن الرسميات... يا إلهي! الزواج كان...! يا للسماء، ها قد بدأت تتحدث في صيغة الماضي... متقبلة واقع موتهما...

آل كيندل، من الطبقة الارستقراطية في بريطانيا... وهذا أمر جهدت حماتها أن تفهمها إياه. ويمكن لسابينا أن تتصور ردة فعل كيم على هذا. وقد استشفت من خلال مكالماتها لها أنها بعيدة عن السعادة، تتوق إلى عملها وحريتها التي طالما تمتعت بها في أميركا. فقد وضع آل كيندل قيوداً على تصرفاتها وحياتها الاجتماعية وبدا أن تشارلز سعيد بما فرض على زوجته من قيود.

الأمر الوحيد الذي نجحت كيم في تحقيقه هو مواجهة عائلة زوجها وإصرارها على أن يولد طفلها في موطنها هي وقد

www.liilas.com

حققت غايتها بعد أن وجدت صعوبة في إقناع ليزا كيندل، لكن تشارلز أخيراً وافق على السفر، فاستقلا الطائرة نحو حتفهما.

شهقت سابينا فجأة:

- يجب أن أتصل بأهلي... فلو علما بالطريقة التي علمت بها ل...

- ربما سمعا الخبر الآن.

- إذن يجب أن أصل إلى المنزل حالاً...

- سأوصلك...

- إلى منزل أهلي... سيحتاجان إلي.

- مع ذلك سأوصلك.

- لكن لديك تصوير هذا المساء. جول تذمر منذ قليل لأننا تأخرنا على مواعيد التنفيذ.

رغم كارثتها كانت تفكر منطقياً. فهز طوني كتفيه.

- وماذا في هذا؟... يمكن أن ننهي التصوير أواسط أيلول بدلاً من بداية آب. فشبكة التلفزيون لن تعترض... ليس وهي تدفع هذا الأجر لنا... أنا أعرف تماماً أننا لنا شهرة واسعة في هذا المسلسل في العالم كله... يا للجحيم... لماذا أتحدث هكذا؟... سأذهب وأخبر جول أننا ذاهبان.

وقفت سابينا في صمت تنتظره. طوني مخطىء لو ظن أنها لا تهتم برأي الجمهور بها وبالمسلسل... منذ شهرين اتصلت كيم بها وهي تبكي وتتذمر من فسق وقذارة حماتها... إذ يبدو أن شقيقة ليزا قد اغتبطت جداً لأن شقيقة زوجة ابن شقيقتها تظهر في دور لئيم متهتك، وأخذت تستغل الفرص لتعلق على

المسلسل ودور شقيقة كيم فيه... في العادة كيم لا تحركها مثل هذه التعليقات، لكن الحمل أثر على أعصابها...

وصل جول هو نفسه إلى الغرفة ترتسم على وجهه المرح عادة ملامح الحزن. فأمسك بذراعي سابينا وتمتم:

- يا إلهي سابينا... لقد أخبرني طوني للتو. لقد كان خبراً أشبه بالجحيم.

- أجل.

لم تستجب لأسفه لأنها ما زالت ملبدة الحس لكنه تابع بصوت منخفض:

- كنت متعلقاً جداً بكيم... عملنا معاً عدة سنوات، قبل أن تتزوج ذلك المتأنق... سنفتقدها جميعاً.

ابتلعت سابينا ريقها بصعوبة... فقد بدأ الغثيان يتصاعد من داخلها، وتلاشى الخدر من أعصابها عند سماعها كلام جول الذي تحدث عن شقيقتها وكأنها لم تعد موجودة... تمتمت:

- أرجوك أن تعذرني...

تركته راكضة إلى غرفة الاغتسال، تجتاحها موجات الغثيان بعد أن صدمتها حقيقة الموقف المرعبة.

لحق جول بها ليساعدها على غسل وجهها بالماء البارد:

- لا بأس عليك... هل أنت أحسن الآن؟

- أجل...

يجب أن تتماسك... لأجل والديها... والدها المحامي القوي... أمها ربة البيت الممتازة... سينهاران أمام الصدمة.

قالت لطوني وهما في السيارة:

www.liilas.com

- يجب أن أحضر بعض الأشياء من شقتي.

- بالتأكيد.

وعادت إلى صمت أفكارها.

كل ما يمر بها الآن، هو حلم... حلم رهيب... لا يمكنها أن تصدقه حتى يقول لها أحد ما... إنه صحيح... أحد ما يعرف الحقيقة... حقاً... فربما يكون الخبر مخطئاً... ربما كيم وتشارلز لم يصعدا إلى الطائرة... ربما شيء ما منعهما عن ركوبها... ربما...

كانت تمر هذه الأفكار في خاطرها وهي تحضر حقيبة خفيفة لقضاء أيام مع والديها. إلا أن رنين الهاتف قطعها عليها، فأسرعت تجيب خافقة القلب... سمعت صوت أمها القوي الثابت المشبع بتصميم شديد لم يكن من طبعها عادة، بل من طبع والدها القوي. سألتها بخشونة:

- هل سمعت الخبر سابينا؟

- أجل سمعته لتوي من التلفزيون مرة أخرى.

فتنهدت الأم:

- اتساءل ما إذا كانوا يعرفون مدى وحشية إذاعة خبر كهذا. لقد اتصل بنا باتريك كيندل منذ بعض الوقت ووفر علينا سماع الخبر بتلك الطريقة القاسية.

باتريك كيندل... الرجل الطويل، الأسود الشعر، المتحفظ، الارستقراطي التقاسيم، الثاقب العينين، الرياضي والنحيل الجسد... برز فجأة أمام عيني سابينا. إنه شقيق تشارلز البالغ من العمر الخامسة والثلاثين عاماً الذى يدير أعمال

عائلته كالدولاب السريع. لم يكن متزوجاً لأن لا وقت لديه للأمور الإنسانية. التقته سابينا مرة واحدة يوم زواج شقيقه وشقيقتها منذ سنتين... ولم يعجبها هو ولا عجرفته وتكبره.

قطعت أمها حبل أفكارها:

- كنت سأتصل بك في الأستديو، لكنني كنت مشغولة بانهيار أبيك. فهو من أجاب على اتصال السيد كيندل. وقتذاك بدا على ما يرام... ثم... أصابته نوبة قلبية!

هذا أسوأ من الكابوس... العالم كله غدا مجنوناً...

- هل... هو...

- في المستشفى... لكن حالته مستقرة. الأطباء واثقون أنه سيكون بخير...

- أنا قادمة إليك...

- لا سابينا! لقد قلت لباتريك كيندل اننا قادمان إليك... هذا قبل انهيار والدك طبعاً. قال إنه سيتصل ثانية عندما يسمع المزيد عن كيم وتشارلز.

- لكنني أفضل الذهاب إليكم... أما السيد كيندل فسيعرف أنني عندكم عندما لا يتلقى رداً من شقتي.

- لكنني لست في المنزل سابينا... سأبقى في المستشفى مع والدك.

- أواثقة أن لا خطر عليه؟

- أكد الأطباء لي هذا. لكنني سألازمه... أرجوك ابقي في شقتك بانتظار اتصال السيد كيندل. أكره أن تفوتنا مخابرته.

أمها على حق... لكنها أحست برغبة في رؤية والدها.

لكن لو اتصل باتريك كيندل وهي غير موجودة...؟

بعد أن وضعت سماعة الهاتف... لم تستطع التحرك... فقد أحست أن والدتها متفائلة بعض الشيء... كيم وزوجها والطفل الذي لم يرَ النور ماتوا... ومهما قللت من أهمية النوبة القلبية، فوالدها مريض حقاً.

ـ أظنني سمعت رنين الهاتف...

شهقت ببؤس وهي تلتفت لترمي نفسها بين ذراعي طوني. فراحت تقص عليه الخبر شاهقة وكأن سداً ضخماً سينفجر فيها. ثم لما وجدت الراحة على كتفه، أعادها إلى الصالون، ضاماً جسدها إلى صدره فالتصقت به أكثر ودموعها تبلل قميصه:

ـ لا أصدق أنها ماتت... لذا لا أستغرب صدمة والدي تلك.

ـ أعلم حبيبتي... أعلم.

مسحت عينيها بقميصه:

ـ أنت لم تعرفها طوني... أليس كذلك؟

ـ رأيت أفلامها... كانت جميلة... تشبهك جداً.

ـ الجميع أحبها طوني... كانت مرحة مفعمة بالحياة...!

تكسر صوتها عند الكلمة الأخيرة... أحبها الجميع إلا عائلة كيندل... كان لكيم وتشارلز جناح صغير في منزل العائلة... في حين كانت الأرملة ليزا كيندل، وابنها الأعزب، يحتلان جناحاً آخر، بينما ابنتها المتزوجة روزي تسكن على بعد عدة كيلومترات مع زوجها وابنتيها... ليزا وروزي كيندل أظهرتا منذ البداية عدم موافقتهما على زواج تشارلز من ممثلة أميركية. أما باتريك العظيم فقد أظهر قلة اكتراثه... أما تشارلز

فلم يكن مثل بقية عائلته... لكنه كان قد قاوم محاولات كيم كلها لاقناعه بالسفر إلى أميركا والعيش هناك، متذرعاً باضطراره إلى البقاء للعمل في مؤسسة العائلة. كذلك أصرّ على عدم السكن بعيداً عن منزل العائلة الكبير.

استجمعت سابينا رباطة جأشها بصعوبة... فهي ليست ممن يسمح للعذاب العاطفي بأن يوصلها إلى الحد الهستيري... التفتت إلى طوني قائلة بهدوء وحزم:

ـ يجب أن تعود الآن طوني... سأكون على ما يرام ثم أن عليك تصوير البرنامج.

ـ لكن جول طلب مني ملازمتك.

ـ لكنني لست بحاجة لمن يلازمني!

كانت في أعماقها، شاكرة اهتمام طوني اللطيف بها... لكن ما من حديث قد يساعدها على تخطي الساعات القليلة القادمة، بانتظار مخابرة باتريك كيندل. لذا رددت الكلام ذاته وهو يحاول الاحتجاج:

ـ حقاً طوني... أنشد بعد الوقت أقضيه وحدي لأتقبل...

ـ تقضينه وحدك؟... حسناً... إذا احتجتني في أي وقت، ليلاً أو نهاراً... اتصلي بي... هه؟

هز رأسه متفهماً... فهو نفسه قد خسر زوجته الشابة في حادث سيارة منذ أربع سنوات، ولم يكن قد مضى على زواجهما سنة...

قدّرت له عدم بحثه الأمر معها فطفرت عيناها بالدموع:

ـ شكراً لك. يداي مغلولتان حتى أتلقى مخابرة باتريك

كيندل. لا أستطيع السفر إلى انكلترا حيث سقطت الطائرة، ولا استطيع الذهاب لرؤية أبي.

انحنى طوني يلثم خدها بخفة:

ـ أنا واثق أن المخابرة لن تتأخر.

لكن الأمسية مرت... ثم ساعات الليل، وباتريك كيندل لم يتصل... كانت خلالها سابينا تذرع الغرفة بعصبية ولمّا يثست أخيراً اتصلت هي بمنزل كيندل.

أمضت بعض الوقت في إقناع الخادم أنها فعلا شقيقته كيم، لا مراسلة صحافية تريد تقصي بعض المعلومات...

بعد الجدال قال:

ـ السيد كيندل ليس في المنزل.

ـ ليس في المنزل؟

ـ لا يا آنسة... لقد غادر منذ عدة ساعات.

ـ إلى أين؟

ـ لست أدري آنسة بيرنت... فهو لا يخبرني عن تحركاته.

فصاحت بها:

ـ كان عليه في مثل هذه الظروف أن يخبرك!

وصفقت السماعة مكانها...

تباً لهذا الرجل! أين اختفى دون أن يخبر أحداً عن مكان وجوده؟ لكنه وعد أن يتصل... امتنعت عن الذهاب إلى المستشفى للاطمئنان عن أبيها لئلا تفوتها المخابرة... إنها تعتمد على ما يملكه من سلطة لتعرف ما حدث... كانت قد اتصلت بشركة الطيران حيث تلقّت منها معلومات تفيد أنهم لا

يستطيعون اعطائها معلومات أكيدة لأنهم كذلك لا يعرفون ما يجري حالياً.

بعد اتصالها بالمستشفى للاطمئنان على أبيها وأمها، اتصلت بالمطار، وحجزت مقعداً إلى لندن في الصباح... فلا فائدة من جلوسها هنا تنتظر.

في الصباح وضبت حقيبة صغيرة لها ثم تناولت فطورها واتصلت تطلب سيارة أجرة... وعندما رن جرس الباب ظنت أنه السائق، لكنها فوجئت بسيل من الأسئلة ووميض آلات التصوير:

ـ كيف تشعرين حيال موت شقيقتك سابينا؟

ـ هل ستجرى الجنازة هنا أم في انكلترا؟

ـ هل ستدفن كيم وزوجها معاً؟

أجفلها البحر الهائج من الوجوه خارج باب شقتها، فالكاميرات، والميكروفونات كانت تندفع في وجهها، وكان بعضها للتلفزيون.

ابتلعت سابينا ريقها بصعوبة... غير قادرة على استيعاب مثل هذا التكالب على معرفة خصوصيات حزنها. أي نوع من البشر هؤلاء ليسألوها مثل هذه الأسئلة؟

ـ هذا يكفي!

صوت متسلط تعالى فوق صياح الجميع، أذهل أعضاء فريق الأعلام، فصمت الجميع.

كان الرجل يشق طريقه بين الحشد ليقف قرب سابينا. وقد تراجع الجميع دون أن يدفعهم أو يفرّق حشدهم وكأن له قوة

تفوق قوتهم.

إنه باتريك كيندل... دون ريب... نعم هي التقته مرة، لكن ذكراه ما زالت راسخة في ذهنها لسبب تجهله. ربما لأنها لم تقابل رجلاً مثله من قبل.

أمسك بذراعها بشدة وجذبها إلى الداخل:

ـ فلنتجه إلى الداخل.

سابينا كانت سعيدة بإذعانها له... لكنها أخذت تسأل نفسها لماذا أجبر نفسه على المجيء إلى منزلها بدل الاتصال هاتفياً. إلا إذا كان قد شعر بتأنيب الضمير بعد انهيار أبيها! لكنها تستطيع الآن أن تخبره أن وقت الانهيار بالنسبة لها قد مر... فقد أمضت تلك الساعات تفكر بهدوء أثناء انتظار مكالمته.

تعالت همهمات المراسلين: «من هذا بحق الجحيم»... «من أين أتى» وقالت مراسلة التلفزيون الأنيقة:

ـ رجل له كتفان كهاتين وجسد كهذا لا يهمني من أين أتى بل ما يهمني أنه هنا...

دفعت المايكرفون إليه تسأل:

ـ سيدي هل أنت صديق للآنسة بيرنت؟

وتمتم صحفي:

ـ كنت أظنها صديقة طوني كريغ...

اشتدت قبضة باتريك كيندل على ذراع سابينا، ومد يده الأخرى ليدفع بالمايكروفون القريب من وجهه، مقطباً تقطيبة سوداء:

ـ أظن أن الآنسة بيرنت قد تلقت ما يكفي اليوم من حشر أنوفكم في خصوصياتها... لو سمحت سيدتي... سيدي...

وهز رأسه محيياً يصرف الجميع. فصاح أحدهم:

ـ هاي... الرجل انكليزي...

فنظر إليه باتريك كيندل ساخراً:

ـ حاسة الاستدلال عندك رائعة.

تابع دفع سابينا إلى داخل الشقة، مقفلاً الباب في وجه المتسائلين، متمتماً:

ـ إنهم كالصقور المتوحشة!

ثم ضاقت عيناه عندما شهد حقائبها قرب الكرسي...

ـ هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟

ـ أنا... لقد... يئست من مكالمتك. فحجزت على أول طائرة إلى لندن وذلك بعد ساعتين!

فهز رأسه معترفاً بالواقع:

ـ هل صحيح أن والدك انهار؟

سرعان ما زال نفورها منه، فأمها قالت لها ان والدها انهار بعد مكالمة باتريك كيندل... فكيف عرف؟

ـ صحيح... ليس هناك خطر، لكن نوبته كانت قوية... أترى كان يحب الصبيان... لم يرزق بهم... كان يأمل أن... آسفة... ربما لا تحب سماع هذا كله.

ـ لم أكن أعلم أنه انهار... لا بد أنها كانت صدمة شديدة لوطء.

هذا ما أكد شكوكها، ومع ذلك بدا وكأن لا علاقة له

بالأمر. فابتلعت ريقها بصعوبة تسأله:

ـ ذكروا في نشرة الأخبار التلفزيونية أنه لم ينجُ أحد.

ـ أخطأوا.

فقفز الأمل إلى قلبها:

ـ صحيح؟

ـ أجل... هذا ما يظهر... اجلسي من فضلك.

ـ لكنني... على ما يرام كما... أنا...

ـ قلت لك اجلسي سابينا. يبدو أن هناك ستة ناجين إصاباتهم خطيرة... لكنهم أحياء.

ـ وكيم...؟

ـ لم تكن هي أو تشارلز منهم.

حتى الآن لم يظهر على هذا الرجل أية مشاعر؟ فاختنقت أنفاسها بعد أن وعت كلماته.

ـ لقد... ماتا؟

ـ أجل...

فصاحت:

ـ يا إلهي!...

لم تكن تعرف مدى الأمل الذي كان في قلبها ومدى شوقها إلى أن تكون الأخبار كلها كاذبة. وها هي أخيراً يتلاشى أملها إذ لا تشك أبداً في أن باتريك يعرف ما يقول.

قاطع بكائها بصوت خفيض مضطرب:

ـ لكن ابنهما حي... وبصحة جيدة.

رفعت سابينا رأسها المبتل دمعاً، وابتلعت ريقها:

ـ... ابنهما؟

فهز رأسه:

ـ كيم كانت من الناجين وقد بقيت على قيد الحياة ساعتين بعد تحطم الطائرة. كانت مصابة بشكل رهيب، لكنها استطاعت وضع طفلها... الذي أسمته... فيليب.

صرخت وهي تضحك وتبكي:

ـ انه اسم أبي!

ـ أجل... وأنا واثق أنه سيفخر بحفيده.

مسحت سابينا دموعها بظاهر يدها:

ـ هل رأيته...؟

ـ فترة قصيرة.

عادت الآن لتتمالك نفسها وهي لا تكاد تصدق ما قاله لها... كيم رزقت صبياً... صبياً حياً!

ـ كيف هو؟ أيشبه كيم أم تشارلز؟ هل...

ـ إنه يشبه كل الأطفال الذين يولدون حديثاً... هو صغير، أحمر، يصرخ كثيراً... ويشبه كيم بشكل لا يصدق!

ظهر لها عند هذا أنه ليس صلباً لا يتحرك كما ظنت.

ـ أريد رؤيته.

ـ ليس لدي شك في هذا. لكن ثمة شيء آخر عليك معرفته، قبل أن نتحرك... لقد احتاطت كيم لمستقبل ولدها... فجعلتنا أنا وأنت حاضني فيليب الشرعيين... معاً...

●●●

فراشة المحبة

٢ ـ الوحيدة التي تجرؤ

صعقت سابينا صعقاً جعلها لا تستطيع التفكير، فوقفت مذهولة وقد طغى عليها الفرح واهتزت بالإثارة لمعرفتها أن ابن اختها حي يُرزق.

لكنها لم تفهم كيف لها ولعمه باتريك أن يكونا الوصيين عليه، وهو يعيش في انكلترا بينما هي في أميركا.

من الواضح كذلك أن باتريك كيندل لم يكن يعرف الحل، إذ قال فجأة وكأنه يصرخ بأفكاره:

ـ بالطبع... الأمر مستحيل.

وضع حقيبة أوراقه على الطاولة وفتحها:

ـ لدي هنا بعض الوثائق الرسمية وضعها محاميّ وهي تعفيك من كل التزام قانوني أو معنوي تجاه فيليب.

وقفت سابينا ببطء، تحس بالغضب يلهب كيانها... فمن يظن هذا الرجل نفسه! لقد جاء ليقول لها إن شقيقتها ماتت، لكن الطفل الذي كانت تترقبه حياً... وها هو يقترح بكل برودة أعصاب أن ينتزع منها الطفل... لا بد أن الرجل مجنون!

ردت عليه بحدة:

ـ لا!

رفع حاجبيه السوداوين متوقفاً عن سحب الأوراق الرسمية من حقيبته:

ـ لا؟

برقت عيناها الخضراوان تحدياً، واشتد جسدها الملتف الطويل كالوتر:

ـ بالطبع لا! فيليب هو ابن اختي، وأختي أرادتني وصية عليه... وهذا ما سأكون عليه!

ـ لديه وصيان... أنت وأنا.

ـ إذن ارتكبت كيم غلطة... فما من أحد يخلو من العيوب!

الوجه المتكبر، اتخذ منحى أكثر تراجعاً وتكبراً... وقال بهدوء:

ـ لا أظن أن الإهانات ستساعد على حل الموقف الدقيق.

فحدقت فيه بنظرة متعالية كنظرته.

ـ ولا حدة إحساساتك كذلك. شقيقتي ماتت منذ وقت غير بعيد وها أنت تطلب مني بكل برودة أن أتخلى عن ابنها. ابن اختي الوحيد... حفيد والديّ الوحيد...!

وارتفع صوتها حاداً متهدجاً! لكنه رد بخشونة:

ـ وهو ابن أخي كذلك، وحفيد والدتي الوحيد.

ـ لكنه ليس حفيدها الوحيد! فعندما ترزق بطفل...

ـ ينطبق الأمر أيضاً عليك وعلى أبويك!

تنهدت نافذة الصبر فهذا الرجل لديه ردود على اسئلتها جميعها.

ـ التخلي عن حق حضانتي لفيل أمر...

ـ اسمه فيليب.

ـ فيل اختصار لـ...

ـ لقد أسمته أمه فيليب، فلنلتزم به...

ـ أنا واثقة أن كيم كانت تود اختصاره إلى فيل. مثل اسم أبيها.

ـ لكنها لم تعد على قيد الحياة...

ـ أيها النذل! أيها النذل البارد الدم العديم الإحساس! أنت... أنت...

تلاشت إلى الأرض بعد أن لفتها العتمة.

عندما صحت من غيبوبتها وجدت أنها ممددة على الأريكة، رأسها مرفوع عن مستوى جسدها بعدة وسائد... ووجه باتريك القلق يلوح فوقها. انتزعت يدها دون وعي لأنها أحست به يمسك يدها، بينما أصابع يده الأخرى تربت بلطف على وجنتها الشاحبة.

ارتد باتريك على الفور يجلس فلم تظهر عليه ملامح الإجهاد بسبب حمله إياها ونقلها إلى الأريكة فقد تكون نحيفة لكنها ليست خفيفة الوزن... إلا أن هاتين الكتفين العريضتين والذراعين القويتين قادرة على كل شيء.

جلست مرتبكة، تتراجع إلى الوراء بعيداً عنه... وقالت:

ـ آسفة.

فهز رأسه باقتضاب:

ـ كنت أتوقع شيئاً من هذا منذ أن وجدت الصحافة تطبق عليك.

ردت بصوت منفعل:

ـ يا لذكائك!

وقف باتريك... أسمر قاتماً إزاء شقتها المشرقة بالألوان الفاتحة... وقال:

ـ لقد وصلت إلى حافة الانهيار... وأشك كثيراً في أنك نمت طوال ليلة أمس...

أنزلت سابينا ساقيها عن الأريكة لتنهض واقفة فأحست بأنها في وقوفها تبدو أفضل حالاً أمامه ورغم طولها المديد بدت مضطرة إلى رفع رأسها. لكنها ترنحت قليلاً، فلم تكن قد استعادت قوتها كما ظنت. ورغم ترنحها بدت ثابتة وهي تواجه باتريك كيندل، وكأنهما خصمان.

قالت مدافعة عن الاغماء الذي أصابها:

ـ مخابرتك هي التي منعتني من النوم... وما كنت مضطراً للمجيء إلى هنا... كان بإمكانك شرح كل شيء على الهاتف، ولوفرت عندها على نفسك مشقة السفر... ولكان بإمكاني قول «لا» بالسهولة نفسها.

فاشتد ضغط شفتيه وهو يقول:

ـ ألن تلقي نظرة على الأوراق؟

ـ لا.

ـ حتى ولو علمت أن فيليب سيكون أفضل حالاً معنا في انكلترا؟

ردت بسخرية:

ـ ومن تعني بـ «معنا»؟ أنت وأمك؟ الأرملة المريرة

الممتعضة دائماً... والرجل العديم الإحساس؟

جالت عيناه الرماديتان الباردتان فوقها بازدراء بارد:

ـ أتقصدين أنه سيكون أفضل حالاً مع ممثلة شابة لعوب دون أخلاق؟

فشهقت:

ـ أتقصدني؟ من أين لك مثل هذا الانطباع سيد كيندل؟

ـ كانت كيم فخورة بمسلسلها التلفزيوني الأول وأجبرتنا على مشاهدتك في دورك اللعوب الذي أبرزت فيه مواهبك!

ـ المواهب هي الكلمة الصائبة سيد كيندل... كنت أمثل دوراً... كنت أظنك ذكياً لتفهم ذلك.

ـ ربما أدركت هذا... لكن ما من سبب يدفعني للاعتقاد بأن فيليب سيكون أسعد حالاً. لا بد أنك تعملين بجهد، لساعات طويلة. وأشك في أن يكون لديك وقت لتربية طفل صغير.

صرفت النظر عن الحكمة في كلماته. فلقد أرادتها كيم أن تشارك في تربية ابنها... وهذا ما ستفعله:

ـ لدي طائرة عليَّ اللحاق بها سيد كيندل...

أغلق حقيبته بعصبية:

ـ سأرافقك.

ـ ليس من الضرورة.

ـ بل هو من الضرورة الملحة لأنني حجزت مقعداً على الطائرة نفسها.

ـ اوه... ألم تكن تنوي الإقامة طويلاً. أم كنت واثقاً من

موافقتي على طلبك حيث أوقع على هذه الوثائق ثم تعود إلى بلادك؟... كيم لم تكن سعيدة مع عائلتكم سيد كيندل. والآن بدأت أفهم السبب!

ـ حقاً؟

ـ أجل!

ـ أما أنا فقد بدأت أرى أنك عنيدة كشقيقتك تماماً. اوه أجل... كنت أعلم أنها لم تكن سعيدة، فهي لم تخفِ الأمر. لكنني مضطر لتذكيرك أنها اتخذت لابنها وصيين وهي بذلك لم تبعد عائلة كيندل عن حياته مما يشير إلى أنها لم تكرهنا كما تعتقدين.

تعجبت سابينا من قدرة هذا الرجل على الإجابة الدامغة!

ـ بدلاً من مناقشة هذا الموضوع، اقترح الذهاب إلى المطار قبل أن تفوتنا الطائرة... سأدخل إلى غرفتي لأتصل بوالدتي القلقة في المستشفى...

فجأة أحست بعقدة الذنب تجتاحها... هذا الرجل قد يبدو بارداً. لكن شقيقه مات منذ وقت وجيز حيث أمضى ليلته دون أن يغمض له جفن، على الأرجح، أثناء انتقاله بالطائرة إلى أمريكا وهذا يعني أنه مرهق. فما كان منها إلا أن قالت:

ـ هل أحضر لك بعض القهوة... شيئاً تأكله؟

رفع إليها عينين لا أثر فيهما للتعب:

ـ شاي؟

فابتسمت له:

ـ لدي شاي، إنها عادة اكتسبتها منذ إقامتي عندكم أيام الزفاف... أتريده مع الحليب والسكر؟

ـ شكراً.

أسرعت والدتها إلى الهاتف عندما علمت أن لها اتصالاً... وكان أصعب ما مر على سابينا هو تأكيد موت شقيقتها لها. فأجهشت الأم بالبكاء بعد أن تأكدت من الخبر... وشاركتها سابينا فيه... فلما دخل باتريك كيندل إلى الغرفة لم تمانع في إبعادها عن الهاتف ليتحدث مع أمها. أخيراً وضع السماعة مؤكداً لها:

ـ لقد غمر أمك الفرح عندما علمت بوجود حفيدها... وهي تأمل أن تتمكن من الذهاب مع والدك إلى انكلترا لرؤيته، لكنني لا أظنك في حالة تسمح لك بالسفر... ربما من الأفضل...

ـ سأسافر معك... أريد رؤية فيل... ليب... ثم ان علي حضور جنازة كيم... يجب أن يكون هناك فرد من عائلتها... أظن الجنازة ستقام في انكلترا؟

دخلت الحمام لتغسل وجهها، فرد عليها:

ـ حالما... أجل... في النهاية.

ـ أفهم هذا... ها أنا على استعداد تام.

ـ هل أنت واثقة؟...

ـ كل الثقة!

ـ وعملك؟

ـ عليه الانتظار... أنا مصممة على السفر معك سيد كيندل، فلا تشك في عزمي.

ـ إذن... فمن الأفضل أن تناديني باتريك... فأنا لن أناديك بالآنسة بيرنت خلال الاثنتي عشرة ساعة القادمة.

ـ اسمي سابينا.

ـ أعرف هذا... فغالباً ما كانت تذكرك كيم.

كانت تود رد الاطراء... لكن كيم نادراً ما ذكرت شقيق زوجها... فمن الواضح أنه كان منطوياً على نفسه... يمضي معظم وقته في عمله، والقليل منه مع العائلة.

ـ هل تشعرين بالقدرة على مواجهة الصحافة ثانية؟ فأنا أشك في أنهم رحلوا. خاصة إذا تناهت إليهم أخباراً عن الناجين.

تمكنت سابينا من السير بثبات إلى جانب باتريك وهما ينزلان السلم ليستقلا التاكسي الذي طلبته... متجاهلاً الأسئلة التي تدفقت عليهما. كان يمسك بذراع سابينا برقة رغم التدافع الذي أحاطهما.

أعطى أوامره لسائق التاكسي وهو يدفع سابينا إلى السيارة:

ـ إلى المطار.

لم تعتقد أن يسيطر عليها أحد بهذه الطريقة فقد نشأت مستقلة تواجه مصاعب الحياة وحدها... لكن باتريك كيندل، كما يبدو، اعتاد السيطرة على النساء... وابتسمت وهي تفكر: انه رجل وسيم في الخامسة والثلاثين، ومع ذلك لم يتزوج بعد... لكنه بالتأكيد يعتقد أن سن السادسة والعشرين سن متأخرة لفتاة لم تتزوج بعد!

ـ ثمة ما يضحك؟

ضاعت ابتسامتها بعد أن أدركت أنه كان ينظر إليها.

ـ لا... في الواقع... هل فيليب في منزلكم؟

ـ لا... سيبقى في المستشفى لبضعة أيام. وهذا أمر طبيعي لأنه ولد قبل أوانه... لكنه رغم ذلك بصحة جيدة، سابينا.

ـ شكراً لله!

كان الهرج والمرج يسود المطار، لأنه على ما يبدو أن رجال الاعلام الذين كانوا قرب منزلها اتصلوا بزملائهم، فقد كان في المطار أكثر من عشرة صحافيين تابعوا مضايقاتهم لهما. ولم تدهش سابينا عندما استأجر باتريك غرفة انتظار خاصة تركها فيها آمنة حتى يهتم بالحجز.

عاد إليها باتريك بعد دقائق:

ـ كل شيء على ما يرام، وسنستقل الطائرة بعد دقائق.

من المستحسن في الوقت الحالي أن يتولى الأمور، فعقلها لا يعمل بانتظام كعادته... أما هو فيبدو أن لا شيء يعيقه أو يكدره. دهشت عندما أوصلتها المضيفة إلى مقعد في الدرجة الأولى من الطائرة إلى جانب باتريك... فحجزها كان في درجة أخرى فقالت لها عاملة الحجز آن لا مكان غيره. قال باتريك مجيباً عن نظرتها المتسائلة:

ـ لقد حجزت لك المقعد مسبقاً.

ـ أكنت تعلم أنني قادمة معك؟

ـ قلت لك... كيم كانت تتحدث عنك كثيراً... وتمكنت بذلك من تخمين ردة فعلك.

ـ ولماذا جئت إلى أمريكا إذن؟

ـ الأمر جدير بالتجربة.

ـ أبداً... لن أتخلى عن فيليب... أبداً!

فتنهد:

ـ أقترح عليك العدول عن ذكر الطفل حتى تصبحي أقل تأثراً عاطفياً.

أحست بالذنب... فأمام هذا الرجل رحلة طويلة أخرى... وهو لا يكاد يقوى على الصمود! وما يحتاجه الآن هو بعض الراحة. فتوقفت عمداً عن الكلام... رغم إحساسها بأنها على شفير هاوية التوتر بسبب إقلاع الطائرة. كل شيء كان قد حدث بسرعة، فهي فجأة تذكرت أنها في طائرة كتلك التي وقعت فكانت سبباً في وفاة كيم وتشارلز... آه ماذا لو...

أمسكت أصابع قوية بأصابعها، بلطف:

ـ لن يحدث هذا سابينا.

لم تتحرك مبتعدة عنه إلا بعد أن أصبحت الطائرة ثابتة في الجو. فأخفضت نظرها محرجة:

ـ آسفة... أنا لست في العادة... حسناً... لست معتادة...

ـ انسي الأمر... لقد نسيته أنا.

لم تدهش كثيراً عندما شاهدته يغط في نوم سريع. فتنهدت... إنها بحاجة إلى وقت للتفكير فيما يجري... وسيجري. إنها وهذا الرجل النائم بقربها سيكونان مسؤولين عن طفل صغير لن يعرف والديه أبداً... طفل سيحرم من حب الأم وحنانها. أقسمت سابينا أن تكون له تلك الأم... مهما فعلت عائلة كيندل أو قالت!

كان باتريك قد ترك سيارته الجاكوار متوقفة في موقف

المطار. قادها إلى منزل عائلة كيندل بنفسه. فالتفتت إليه:

ـ لكن فيليب...

ـ سأصحبك إليه غداً. وعندها أعتقد أننا ستتمكن من حمله إلى المنزل.

احمر وجه سابينا لتفكيرها بغرابة التقارب القائم بينهما وهما يحملان الطفل إلى المنزل... ربما باتريك فكر في هذا أيضاً فأضاف:

ـ سنستأجر مربية...

ـ لا!

ـ إنها الطريقة الفضلى...

ـ ربما هي الطريقة الفضلى لديك باتريك... لكني مؤمنة أن فيليب بحاجة إلى حب الأم لا إلى اهتمام مربية لا علاقة لها به.

ـ حب الأم أمر لن نستطيع منحه إياه!

ـ لكنني أستطيع... فأنا سأتبناه وأتخذه ابناً لي.

فنظر إليها بعينين غاضبتين:

ـ هذا صعب.

ـ ولماذا؟

ـ يجب أن يوافق الوصيان على أي اجراء يتعلق به...

فاستدارت بحدة في المقعد الجلدي للسيارة تنظر إليه، فرأته قلقاً، تبدو خطوط التوتر حول عينيه وفمه... فسألته:

ـ وأنت لن توافق على أن أتبنى فيليب؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لأن تبنيك إياه لن يصب في خانة مصلحته.

ـ لا تكلمني بتعالٍ باتريك كيندل! قل لي فقط ماذا تقصد. هل تعتقد أن «ممثلة عابثة دون أخلاق» لا تصلح أن تكون أماً مثالية له؟

فتنهد عميقاً:

ـ ليتني لم أذكر تلك الملاحظة... فأنا أشعر أنك سترمينها في وجهي طوال فترة تعاوننا!

ـ وهذا لن يكون لوقت طويل! فأنا عائدة إلى لوس انجيلوس في أسرع وقت ممكن.

ـ دون فيليب؟

ـ بل مع فيليب!

ـ لا... ليس قبل أن أوافق. وهذا ما لن يحدث أبداً. ألا تظنين أنَّ الوقت مبكر للتخاصم بشأن مستقبل فيليب؟

ـ معك. لا أشعر أبداً أن الوقت مبكر لأي جدال!

أمام دهشتها ارتسمت مكان خطوط التجهم ابتسامة فبدا على الفور أصغر سناً... وسيماً بشكل لا يصدق... فالخطوط في وجهه تحولت إلى خطوط مرح. لكنها خطوط غير مألوفة... وكأنه لا يبتسم كثيراً. لكن مهما كان السبب كانت ابتسامته غير متوقعة. فنظرت إليه فالتوى فمه وهو يجيب:

ـ أنت الوحيدة التي تجرأت على مجادلتي.

فابتسمت أيضاً:

ـ حقاً؟

ـ حقاً.

ـ هذا لا يصدق.

ـ أجل.

ـ وهل هذا نوع من التعجرف؟

فابتسم ثانية:

ـ لا... بل هو يبعث البهجة في الواقع.

لماذا تحمّر خجلاً كتلميذة بحق الله؟ ألمعرفتها أن باتريك وجد فيها شيئاً يبعث البهجة إلى نفسه أم السبب أن ذلك الرجل الثلجي الأصلي يشكل تحدياً لها.

احتاجت إلى كل ما تملكه من ثقة بالنفس لتدخل منزل كيندل بعد وقت قصير... إنها قلقة من مقابلة ليزا كيندل. فهما ما تبادلتا الإعجاب عندما التقتا منذ سنتين. ولا سبب يحدوها إلى الاعتقاد بأن المرأة ستكون ألطف معها الآن عما كانت عليه فيما مضى بل إن كانت العجوز تؤمن حقاً أن دورها العابث في المسلسل يمثل طبيعتها الحقيقية فلا شك أن تتخذ منحى أقسى.

ليزا كيندل امرأة طويلة، كولدها تقريباً. شعرها الرمادي مسرّح بشكل رائع. ماكياجها يخلو من أي عيب رغم الستين سنة. ذوقها في الملابس متكلف ويظهر رشاقة جسدها النحيل. ولم يظهر عليها أي أثر من انهيار الأمس.

نظرت إلى سابينا بعينين زرقاوين قاسيتين كالصوان دون إظهار الدهشة لرؤيتها، لكن دون ترحيب بها كذلك... حسناً، هذا يناسب سابينا تماماً... فهي كذلك ليست سعيدة بوجودها هنا.

ـ آنسة بيرنت. (حيتها المرأة بتعال).

فردت سابينا ببرود ثلجي:

ـ سيدة كيندل.

ـ والداك بخير؟

اتسعت عينا سابينا... ما بال هذه العائلة؟ ابن هذه المرأة وكنتها ماتا بفاجعة لتوهما وهي تسألها عن عائلتها؟ هؤلاء الناس دون مشاعر بالتأكيد! ولا حاجة إلى البحث عميقاً لتعرف سبب افتقاد الابن للمشاعر... فهما كما يبدو لا يعرفان أصلاً معنى كلمة الحب!

ـ هل استطيع الذهاب إلى غرفتي رجاء؟ أحس بالتعب... بعد رحلتي.

سرعان ما قرعت السيدة الجرس للخادم، وأعطته التعليمات ليرافق سابينا إلى الغرفة الصفراء... لكن باتريك قال لها وهي تمر بقربه تتبع الخادم:

ـ سنكمل حديثنا فيما بعد.

فالتفتت إليه تبتسم... تشعر بأنه الشيء الوحيد الثابت في عالم يبدو لها في هذه اللحظات مهتزاً.

ـ تبدو تعباً... فلماذا لا تستريح أيضاً؟

اتسعت عيناه... ثم ضاقتا... وكأنه يشك في دوافعها:

ـ ليس بعد... فلدي أشياء أقوم بها.

ـ لكن لا تتأخر... همم...؟

ـ ربما... اذهبي الآن مع الخادم.

أحست أنه أحسن صرفها... فندمت على أدبها معه... هذا الرجل لا يحتاج إلى عطف أحد... أو لأي شيء!

• • •

جلست سابينا صامتة إلى جانب باتريك وهو يقود السيارة إلى المستشفى لإخراج فيليب منها... اضطرابها جعلها تحس بخدر في قبضتي يديها. لكن من السخف أن تتوتر هذا التوتر كله لرؤية طفل... ومع ذلك لم تستطع السيطرة على نفسها، إذ لا خبرة لها مع الأطفال من قبل... خاصة مع الأطفال الرضّع، فهي لا تعرف حتى كيف تحمله... وهذا ما ألمها عندما قالته لها ليزا كيندل.

لا بد أن باتريك كان قد تحدث مع أمه عندما نزلت سابينا إلى العشاء ليلة أمس. فهي كانت في ذروة تكبرها وتعاليها عندما أخذت تسرد الأسباب التي تمنع من أن تعتني سابينا بفيليب، حسب نظرها. وعندما بقيت سابينا مصممة على رأيها... لجأت العجوز إلى الاهانات، فلم تردعها حتى كلمات ابنها القاسية. وقد استمرت في قذف الإهانات إلى أن اقترح عليها ابنها أن تخلد إلى الفراش، فرافقها ولم يعد إلا بعد أن تأكد من نومها. فأخذ يعتذر عن فظاظة أمه، لكنه لم يبدِ أي عذر لتصرفها.

الآن، أصبحا على مقربة من المستشفى... سترى أخيراً ابن كيم!

وجدته جميلاً! لا طريقة أخرى لوصفه... امتلأت عيناها بالدموع عندما شاهدت الممرضة ترفع عربة نومه الصغيرة إليهما. كان ينام بهدوء بعد وجبة منتصف الصباح.

تنفست ببطء وعيناها متسعتان من الذهول:

ـ إنه جميل... باتريك...!

التفتت إليه، فإذا تعابير وجهه رقيقة:

ـ لماذا لا تلبسينه ثيابه بينما أتحدث إلى الطبيب؟

ابتلعت ريقها بصعوبة... لقد اعتبرت دائماً نفسها سيدة قادرة قوية... لكن هذا الطفل الصغير يرعبها... رطبت شفتيها بتوتر... ثم حملت علبة ملابس أطفال فاخرة، وصلت هذا الصباح إلى منزل كيندل... فالعائلة قادرة على جعل مثل هذه الأشياء تصل بواسطة مراسل خاص.

دلتها الممرضة على غرفة خاصة... حيث تمكنت فيها بمساعدة كبيرة من الممرضة من الباس فيليب بذلة مقفلة زرقاء، ناسبته تماماً رغم صغر سنه. فبدا يشبه كيم بطريقة لا تصدق... بشعره الأشقر الأحمر وبعينيه الزرقاوين القاتمتين... بل أن سابينا أحست بأن الدموع تتجمع في عينيها... فشجعتها الممرضة بلطف:

ـ هيا... هكذا هو الحال دائماً مع الأمهات اللواتي يأخذن أطفالهن الناقص نموهم إلى المنزل.

ـ اوه... لكن...

ـ إنه يشبهك كثيراً... كما أن له فكي والده... سيكون طفلاً ذكياً.

فابتسمت سابينا لسوء فهم الفتاة... فهي بطريقة ما اعتقدت أنها وباتريك والدا فيليب... كم سيغضب باتريك عندما يعلم!

تابعت الفتاة كأنها تشرح سبب التباسها هذا.

ـ كنت في إجازة... ولم أحضر ولادته... لكنني أرى أن صحته جيدة جداً بالنسبة لطفل ولد في الشهر السابع. أتعلمين

أن له لون بشرتك؟

تحركت الفتاة نحو الباب مبتسمة بخجل:

ـ لقد وصل زوجك الآن.

نظرت سابينا إليه... تمسك فيليب بثبات بين ذراعيها... تتساءل عما ستكون ردة فعله عندما يعلم أن الجميع يظنونه زوجها. فبعد رأيه الوضيع بأخلاقها، هو على الأرجح سينكر بجرأة أية علاقة بينهما. لكنه فاجأها بقوله:

ـ هل أنت جاهزة حبيبتي؟

فهزت رأسها... وببطء، وذهول منعها من الرد عليه، فتبعته إلى الممر... حيث لاقتهما ممرضة بابتسامة ودودة:

ـ حظاً سعيداً!

فهز رأسه باختصار ليشمل امرأة فضية الشعر:

ـ شكراً... على كل شيء.

أصعدها باتريك إلى مقعد سيارته الجاكوار الخلفي وهي تحتضن فيليب بحزم بين ذراعيها... فرفعت عينيها إليه وهو يحاول أن يريحها في المقعد أكثر:

ـ لماذا؟

فرد بصوت منخفض:

ـ انتظري إلى أن ننطلق...

أقفل الباب بهدوء تام لئلا يزعج الطفل.

سابينا بالتأكيد، لم تكن تعرف معنى مشاعر الأمومة التي اندفعت منها نحو فيليب... أحست بالصدمة لعلمها أنه يعتمد عليها كل الاعتماد... عليها وعلى باتريك الذي أوضح أنه يريد أن يلعب دوراً هاماً في حياة فيليب... وهو لن يغيّر رأيه وهذا

ما باتت تعرفه تماماً بعد أن عاشرته قليلاً.

تكلم فجأة قاطعاً عليها أفكارها:

ـ بما أن الصحافة لم تعرف بعد بوجود فيليب الذي أريده أن يبقى سراً بعض الوقت. قمت بهذه الخدعة في المستشفى.

ـ خدعة؟

ـ لقد سجلت فيليب على انه ابننا.

ـ ابننا؟

ـ هذا صحيح.

ـ يا لجرأتك.

ـ هس! ستوقظين الطفل. وأنا أكيد أن ليس لديك فكرة عما سيفعله عندما يستيقظ... هل لديك أي رد لاذع.

ـ أبداً... لكنني أراهن أنك أنت كذلك لا تعرف.

فرد بمكر:

ـ مخطئة.

ـ مخطئة؟

ـ أجل... فلدي كل التفاصيل مكتوبة... مع تحيات رئيسة القسم.

ـ هذا غش!

ـ بل تفكير سليم...

ـ يا لذكائك.

مع أن باتريك بدأ أكثر ودّاً اليوم... إلا أنه ما يزال ذلك الغريب بالنسبة لها. ربما أن براءة فيليب أثّرت فيه، لكنها لن تعتمد على هذا! فما من شك أنه سيعود إلى طبيعته بعد وقت قصير.

صاح والسيارة تجتاز الطريق الخاصة الطويلة باتجاه المنزل:

ـ اللعنة... اللعنة!

فانحنت سابينا إلى الأمام بقلق:

ـ ما الأمر؟

ـ لعلك ما زلت غير مستعدة لمواجهة الصحافة مرة أخرى. لماذا لم تتصل أمي بالشرطة لرميهم خارج ممتلكاتي؟ لن نتمكن الآن من اخفاء وجود فيليب... لازميني سابينا ولا تتفوهي بكلمة!

نزلا من السيارة فأحاطهما الصحافيون... ماذا يظن بها...! إنه يعاملها وكأنها حمقاء لا دماغ لها، لا كامرأة في السادسة والعشرين من عمرها... من يظن...

لاحظ بسرعة وميض الغضب في عينيها فهمس:

ـ اهدئي... لا أريدهم أن يلاحظوا أنك تكرهينني.

وبدأت الاسئلة تنهال:

ـ هل هذا ابن أخيك سيد كيندل؟

ـ هل هو ابن كيم بيرنت وشقيقك تشارلز؟

واستمر باتريك في قيادتها نحو المنزل. وحاول مراسل أن يكون مؤدباً...

ـ هل هذه سابينا بيرنت سيدي؟

فقال آخر:

ـ بالطبع أنها سابينا بيرنت. ألا تشاهدها في مسلسلها الشهير؟

وتبعهما الرجل:

ـ يقال انكما الوصيان على الولد. سيد كيندل؟

تجاهل باتريك الاسئلة وسار وسابينا بثبات إلى المنزل. لكن الرجل ازداد إصراراً:

ـ أيعني هذا... أنكما ستتزوجان لتكملا رومانسية القصة؟ أجفلت سابينا... وأحست بباتريك يتصلب... هي وباتريك... يتزوجان؟... أبداً.

• • •

فراشة المحبة

٣ ـ زواج؟ مستحيل!

أحست سابينا برضّة في ذراعها من الطريقة التي دفعها فيها باتريك إلى داخل المنزل ليقفل الباب في وجه المراسل اللجوج الذي ما زال يطلق اسئلته.

لم تصدق سابينا قط صدمتها هذه... فمن أين يجيء اناس بمثل هذه الأفكار؟ هي وباتريك لا يكادان يعرفان بعضهما بعضاً، وما يعرفانه لا يعجبهما.

كان باتريك شديد العبوس عندما خرجت أمه من غرفة الجلوس:

ـ هل استدعيت الشرطة أمي؟

ـ شرطة؟ أتعني الصحافة؟

ـ بالطبع لا. أعني...

فقاطعته وعيناها الباردتان تنفثان السم الحاقد على سابينا:

ـ باتريك... لم يكن يحق لك اصطحاب هذه المرأة لتأتي بحفيدي...!

فقطب:

ـ أتعنين أنك أنت من استدعيت الصحافة؟

فصاحت العجوز بحدة:

ـ لا... بالطبع لا.

وتقدمت نحو سابينا مادة ذراعيها وقالت آمرة بلؤم:

ـ اعطني إياه.

اشتدت ذراعا سابينا حول الجسد الصغير المدثّر بالأغطية، إذ لم تعجبها النظرة الهستيرية المطلّة من عيني ليزا كيندل. أخطأت عندما اعتقدت أن هذه المرأة خالية من العاطفة والمشاعر تجاه ابنها وزوجته لأنها بدأت تتصدع ببطء، ولم تعد مشاعرها متماسكة.

نظرت سابينا متوسلة إلى باتريك، وأحست بالراحة عندما تحرك ليسيطر على الموقف:

ـ حان وقت تناولك الدواء أمي.

ردت الأم عليه بغطرسة دافعة يده عن ذراعها:

ـ لا أريد الدواء... إنه يجعلني أنام. ولو لم أنم هذا الصباح لخرجت معك لإحضار فيليب... فلا حق لها فيه!

ـ أمي...

ـ إنها امرأة فاسقة يا باتريك... كشقيقتها تماماً... لن أسمح لها أبداً بالتدخل في حياة حفيدي!

بدأ صوت ليزا كيندل في الارتفاع بحدة وهي تردف:

ـ يجب أن تعرف أن ما من أحد من عائلتها قادر على تربية ولد تربية شريفة!

لمعت عيناها بالحقد... فشحب وجه سابينا:

ـ سيدة كيندل...

اندفعت المرأة المتعجرفة بسرعة نحو فيليب صائحة:

ـ اعطني إياه!

فارتدت سابينا إلى الوراء... وقد رأت أن لا مفر من هذه

المرأة المجنونة!

ـ أمي...

بدأت ليزا بشد ذراع سابينا، فاستيقظ الطفل، وأطلق صرخة جوع ترجف القلب.

ـ اعطني إياه!

التفتت إلى ابنها تنظر إليه نظرة انتصار:

ـ أرأيت؟ فيليب لا يحبها... إنه خائف منها... باتريك إنني أمنع هذه المرأة من الاقتراب من حفيدي.

سيطر عليها باتريك، ثم راح بحزم يوجهها خارج الغرفة، دون أن ينظر إلى سابينا المصدومة الشاحبة:

ـ فلنذهب إلى غرفتك أمي.

ماذا تعني ليزا كيندل بدعوة كيم بالمرأة الفاسقة؟ كيف تجرؤ على إهانتها والتلميح إلى أنها مثلها! قد تكون المرأة على وشك الانهيار، لكن إهاناتها لكيم لا تغتفر!

ـ هل لي أن أطعم الطفل آنسة بيرنت؟

التفتت سابينا لدى سماعها الكلمات الرقيقة، فاتسعت عيناها وهي ترى ممرضة ترتدي رداءها الرسمي الأبيض الخالي من العيوب، كانت امرأة متوسطة العمر على وجهها ابتسامة دافئة، تمدّ ذراعيها، لاستلام فيليب.

أضافت الممرضة والطفل يبكي:

ـ أعتقد أنه جائع، آنسة بيرنت.

تصارع الغضب والتعقل، فانتصر الأخير... فيليب جائع جداً كما يدلّ صوته... ولا تدري ماذا فعل باتريك بزجاجة الحليب التي أحضرها معه. فلم يكن لديها أي خيار سوى أن

تسلم الطفل إلى المرأة التي تظهر المقدرة عليها.

سألتها بعفوية والمرأة تضم فيليب بين ذراعيها:

ـ هل تعاقد معك السيد كيندل؟

ـ طبعاً... ولقد حضّرت غرفة الطفل أثناء غيابك... لو سمحت لي الآن.

هزت سابينا رأسها باقتضاب... فقد بدا أن رئتا فيليب ستنفجران إذا لم يطعمه أحد في الحال! لكن أن يستخدم باتريك ممرضة دون استشارتها أمر لا يغتفر... خاصة وأنها أبدت رأيها بمثل هذه الفكرة.

مضت عشر دقائق ولم يعد من غرفة أمه... فتنهدت سابينا بغضب، وصعدت إلى غرفتها لتستحم وتغير ملابسها للغداء. فما يجب أن تقوله له، لا يؤجل أبداً. فكيم دون ريب عوملت كالمنبوذة في هذه العائلة... وكلمات ليزا كيندل تظهر أكثر من هذا! لكن... سابينا بيرنت... لا تحب أحداً من أفراد هذه العائلة... ولن تسمح لأي منهم بالتطاول عليها.

تناولت الغداء وحدها... ثم سألت بشكل عرضي الخادم عن مكان وجود باتريك، فأخبرها أنه في مكتبته. وهذا كل ما تود معرفته!

بعد طرقة ثابتة على الباب سمعت باتريك يطلب منها الدخول. فدخلت ووقفت بعدائية أمام طاولة المكتبة، رافضة عرضه بالجلوس. فهي لا تريد أن تشعر بالحرج وهي تجلس أمامه وكأنها تلميذة مذنبة!

ـ لقد تعاقدت مع مربية...

فصحح لها بهدوء:

ـ ممرضة. أفيليب معها الآن؟

ـ لقد أطعمته وهو في مهده نائماً الآن. تفقدته قبل الغداء.

ـ أعلم أن السيدة بريد كفوءة قديرة.

ـ أعتقد أنني قلت لك إنني لا أريد له مربية...

ـ السيدة بريد ممرضة.

ـ مربية، ممرضة سواء!

ضاقت عيناه الرماديتان وكأنه يستعد لمعركة.

ـ فيليب ولد قبل أوانه في ظروف غير طبيعية... والأطباء لم يوافقوا على أن نأخذه اليوم إلا بعد أن وافقت على استخدام ممرضة محترفة، تراقب صحته بضعة أسابيع.

ـ اوه...

ـ حقاً.

فاجتاح الاحمرار وجنتيها:

ـ كان يمكنك قول هذا لي... تباً لك! أنت لم تفُه بكلمة لعينة واحدة أثناء الطريق من المستشفى إلى البيت.

ـ كان هناك أشياء أخرى تشغل فكري...

ـ هستيرية أمك على ما أرجو!

ـ فلندع أمي خارج الموضوع.

فصاحت به متوترة:

ـ لن أفعل! لقد تفوهت بإهانات تحتاج لشرح.

وضع باتريك القلم من يده ووقف... ثم قال بحدة وعيناه تضيقان غضباً:

ـ لماذا تصرين على مواضيع من الأفضل أن تترك في الوقت

الحاضر؟

ـ ولماذا تصر على تجنب هذه المواضيع؟ فأنت حتى الآن ترفض التباحث بشأن مستقبل فيليب، وها أنت تضيف إليه رفضك ذكر سبب كراهية أمك لكيم.

ـ ألم تفكري قطّ أن هذه الخسارة المزدوجة أثرّت فيّ أكثر مما أثرّت فيكما أنت وأمي؟ ألم تفكري قطّ أنني أحزن أيضاً. ربما لا أظهر مشاعري كما تفعلين أنت، لكن هذا لا يعني أنني أفقدها. تشارلز كان أخي الأصغر، وكيم كانت فرداً من أفراد هذه العائلة مدة سنتين. ربما لم أظهر أمام أحد مشاعري قبل الآن... لكنك وأمي كنتما تظهران ما يكفي من هستيريا لنا جميعاً!

ابتلعت ريقها بصعوبة، تحس بوقع التأنيب كما هو تماماً. فإن لم يظهر مشاعره فهذا لا يعني أنه متحجر القلب دون مشاعر، فقالت:

ـ أنا آسفة... سنؤجل هذا البحث في الوقت الحاضر إذن.

فالتوى فمه مزاحاً:

ـ نؤجله فقط؟

ـ كلمات أمك ضد كيم مهينة جداً.

ـ إنها على وشك الانهيار. وهذا ما لاحظته طبعاً؟

ـ لكننا عادة لا نظهر حقيقة ما نحس به إلا في ذروة الانفعال.

ـ صدقيني... أمي دائماً صريحة... ودائماً تقول ما تحس به.

ـ مثلك.

ـ ومثلك.

أراح المرح العفوي أساريرها. فقالت ساخرة:

ـ إذن نحن مجموعة من الصادقي الانفعالات؟

ـ نعم هذا ما أراه... والآن أتسمحين لي بأن أتمّ عملي؟ فمصانع كيندل لم تتوقف بعد، وعليّ إدارتها.

بقي مشغولاً ثلاثة أيام فما كادت تراه إلا قليلاً لكنها لم تشاهد ليزا كيندل كذلك، فقد أقنعها ولدها بالإقامة عند ابنتها لفترة. فأمضت بذلك سابينا أوقاتها كلها مع فيليب، وسرعان ما تلاشى توترها معه. فتمكنت من إرضاعه وإلباسه، وتغيير حفاضاته. كما أن الطفل بدأ يتعرف إليها، فغالباً ما كان يتوقف عن البكاء عندما تحمله وتهدهده بعد أن تعجز السيدة بريد...

في الليلة الثالثة، تسمّرت سابينا في مكانها عندما شاهدت باتريك في غرفة الطفل يجلس في الكرسي الهزاز يطعم فيليب الحليب... فهي لم تعرف أنه قام بمثل هذا من قبل.

رفع بصره إليها وكأنه أحس بنظراتها المحدقة فيه، فابتسم عندما رأى دهشتها... فردت الابتسام متقدمة نحوه:

ـ أنت رائع هكذا.

ـ هذا ما كنت أظنه، إلى أن حاولت أن اجشئه فتقيأ على ظهري!

كبحت سابينا ضحكتها بصعوبة:

ـ حدث لي ذلك في البداية. لكنني الآن أضع منشفة صغيرة على كتفي.

ـ سأفعل هذا في المستقبل.

وضع الزجاجة من يده بعد فراغها.

ـ انتظر... دعني أضع هذه.

سارعت إلى وضع منشفة على كتفه. فقال ساخراً:

ـ أليس الوقت متأخراً على هذا؟

ـ التأخر أفضل من لا شيء.

مسحت فم فيليب بعد تقيئه قليلاً. ثم قالت برضى:

ـ انظر... يكاد ينام.

وقف باتريك ليضع الطفل الناعس في مهده.

ـ أرسلت السيدة بريد للعشاء، ففكرت في أن أختبر سبب إشراقتك خلال الأيام الأخيرة.

ـ لم تكن كلها كذلك فقد تقيأ عدة مرات على ظهري.

مسح بقايا الحليب عن كتفيه:

ـ يا إلهي... رائحة القميص مقرفة!

ـ وكذلك رائحتك، سأغسل لك هذا القميص اثناء اغتسالك.

ـ وأنا الذي ظننت أن رائحة الأطفال دائماً عطرة.

فضحكت بصوت منخفض:

ـ مسكين باتريك!

ـ همم... هل حرمتك من متعتك الليلية؟ ذكرت السيدة بريد أنك تطعمين فيليب وتعتنين به الآن.

ـ أتمتع بهذا كثيراً.

هز رأسه وخرج إلى الممر فتبعته حتى لا تُزعج محادثتهما الصغير النائم. قال لها بهدوء:

ـ ستجري الجنازة في الغد ظهراً سابينا...

شحب وجهها! إنها تعرف أن جثث ضحايا الكارثة قد سلمت إلى الأهلين للدفن... لكن الجنازة لم تذكر أمامها من قبل...

أردف بصوت خالٍ من المشاعر تكرهه:

ـ لقد تحدثت مع أهلك... والدك ما زال في حالة لا تسمح له بالسفر ووالدتك لا تريد تركه في مثل هذه الظروف.

أحست بتقاربهما الذي كان خلال وجودهما مع فيليب يتلاشى ليحل محله الامتعاض:

ـ كان يجب أن تتركني أخبرهما.

ـ لم يكن ضرورياً...

ـ إنهما أهلي... تباً!

ـ لماذا تلجأين إلى الشتم دائماً عندما تفقدين أعصابك؟

ـ ولماذا تفقدني أنت أعصابي؟

فرد عليها متجهماً:

ـ ليس لدي فكرة.

فحملقت به بعينين تلمعان باخضرار عميق:

ـ لكنني أعلم! فعليك أن تكون أقل تعجرفاً. فأنت أكبر متسلط رأيته في حياتي وهذا ما دفعني إليه سوء طالعي. فليس من حقك مكالمة أهلي عن الجنازة... لأن ذلك واجبي أنا!

ـ لم أشأ أن أزيدك ألماً...

ـ أنت تعني أنك كنت مشغولاً بتنظيم كل شيء فلم تفكر في مشاعر أي إنسان آخر إلاك... لقد تمكنت من تنظيم حياتي منذ تركت بيت العائلة في الثامنة عشرة لالتحق بالجامعة... ثم

ظهرت أنت، مع تسلطك تتوقع من الجميع القفز للخضوع لأوامرك... حسناً... أنا لن أقفز سيد كيندل.... بل لن أفعل هذا أبداً!

استمع إلى قولها اللاذع بصمت متحجر... فرجل يملك ويدير امبراطورية يتخذ القرارات كل يوم، قرارات تؤثر في حياة الألوف، لا يقبل امرأة واحدة غير مرحب بها في منزله، تتجرأ وتمتحن سلطانه... لا شك في أنها كانت صدمة كبيرة غير متوقعة له.

أضافت ببرود:

ـ سأعود إلى أميركا... بعد الجنازة... لكنني لن أغيب أكثر من بضعة أسابيع، إذ سأرجع لأحاربكم بكل سلاح لأفوز بحضانة الطفل.

فهز باتريك رأسه:

ـ لن أتركه لك.

ـ ألأنك تعتبرني ذات أخلاق وضيعة؟ لكنك لن تجد ثغرة فيها. مهما حاولت النبش عميقاً في الماضي... كنت مشغولة كثيراً في عملي خلال السنوات الأخيرة ولم أرغب في تعقيد حياتي بمشاكل عاطفية. خاصة بعد أن كان زواج كيم نموذجاً لي! أحبت شقيقك... ومع ذلك لم تكن سعيدة... وهذا ما لا أرغب أن يحدث لي.

نظر إليها بعينين ضيقتين:

ـ لكن كيم ذكرت رجلاً اسمه طوني.

فاحمر وجهها:

ـ يبدو أنك أمضيت وقتاً طويلاً تتحدث فيه إلى شقيقتي.

ـ كانت امرأة ذكية... وتشارلز لم يكن دائماً هنا... فأخبرتني كيم عنك وعن أهلكما وعن طوني.

ـ أعرفه منذ أشهر عدة... لكنني لن أتزوجه.

ـ أيعرف هو بهذا؟

ـ هذا ليس شأنك سيد كيندل!

فتنهد:

ـ لا... لا أظن هذا... حسناً سابينا... امضي ما تشائين من وقت في أميركا... لكن عندما تعودين لا تتوقعي أبداً أن تأخذي فيليب مني... إنه من عائلة كيندل، وسيبقى فيها لأنه إليها ينتمي.

ـ سنرى!

ـ حقاً سنرى.

ارتد على عقبيه متجهاً إلى غرفته ليغير قميصه... ثقته بنفسه هي التي تقلقها أكثر من أي شيء آخر... إنه واثق كل الثقة من نفسه... وكأن ليس أمامها أقل أمل في الحصول على فيليب وربما لا تملك فرصة... فأمور كثيرة هي ضدها: عملها، عزوبيتها، جنسية فيليب الانكليزية... لكنها لن تستسلم دون قتال... ولن تكون ابنة أبيها لو فعلت!

كرهت سابينا الجنازات... فلم تحضر جنازة من قبل... وهذان النعشان المسجيان في الكنيسة، يحتويان على بقايا كيم وتشارلز.

وقف باتريك إلى جانبها... من الناحية الأخرى راح يدعم أمه الموشكة على الانهيار... ركبت سابينا السيارة معهما إلى الكنيسة، بينما لحقت بهما روزي ودايفد فريستون في سيارة

أخرى.

كرهت سابينا وجودها في هذه الكنيسة الباردة الخالية من المشاعر وكرهت نظرات الفضول الموجهة إليها من قبل عائلة باتريك... وتساءلت لماذا لم تستطع البكاء وشقيقتها مسجاة في النعش أمامها.

كانت ترفض البكاء... ترفض تصديق أن هذه الأشلاء هي لكيم تلك المرأة المحبوبة المرحة الضاحكة. ما من أحد من الموجودين هنا أحبها... ما من أحد منهم حاول أن يفهمها... لذا لن تترك لهم شقيقتها الرضى بمعرفتهم مدى حزنها عليها.

حين رجعوا إلى المنزل، بدا أن ليزا كيندل قد استعادت رباطة جأشها. فعادت تمثل دور المضيفة اللبقة أمام أفراد العائلة القادمين من الكنيسة. كان ما يجري بالنسبة لسابينا جزءاً مكملاً للمسرحية... كيف لهؤلاء الناس أن يحسوا حقيقة بفقدان شابين جميلين، بينما هم يتجمعون حلقات حلقات يشربون ويأكلون والخدم يدورون بصواني المآكل بينهم؟ بكل صراحة... كل ما كان يجري حولها أصابها بالسقم.

أرادت الهرب... والابتعاد عن القوم... لكن الكبرياء منعتها فبقيت تقف حيث هي في الغرفة... فشقيقتها لم تكن ممن يهرب من معركة، وهي لن تفعل.

ـ لقد نالت أخيراً ما تريد!

أجفلت سابينا والتفتت لتواجه روزي فريستون، فتوترت لأن هذه المرأة أشد برودة وأكثر تعالياً من والدتها. فعلمت سابينا

أن أي محاولة للحديث معها لن تمت إلى الأدب بصلة. فردت عليها متسائلة ببرود:

ـ أستميحك عذراً؟

ـ أقصد أن كيم أرادت دوماً الابتعاد عن العائلة... وهذا ما نالته وإن كان بطريقة لم تتوقعها.

شهقت سابينا أنفاس ألم:

ـ هذه طريقة في القول فظة مقرفة!

رفعت روزي حاجبيها الأسودين ببرود ساخر، ونفضت رماد سيكارتها في المنفضة:

ـ حقاً؟... ربما... لكن أليست هي المضيفة؟

ـ لم تكن كيم سعيدة هنا. أجل... لكن...

ـ أكنت تعلمين بهذا؟

ـ لا أظنها أخفت يوماً عدم رضاها عن حياتها هنا.

ـ لقد أرادت العودة إلى عملها... ما كان على تشارلز أن يتزوج من ممثلة. كان واضحاً أن امرأة مثلها لم تكن تهتم سوى بماله.

شهقت سابينا... روزي تشبه أمها أكثر مما توقعت. كلاهما تشعران بالسعادة لإهانة كيم الميتة.

ـ هل يجب أن أذكرك أن كيم... شقيقتي؟

اهتز صوتها قليلاً، ولاحظت فم المرأة يلتوي سخرية بهذا الضعف... وصدر عن روزي استهزاء:

ـ لا تذكّريني... فأنت تشبهينها بطرق عديدة.

هذه المرة الإهانة كانت هجوماً شخصياً... فلم تتردد سابينا بالرد... فقالت لها ببرود:

ـ وهل كانت تظنك كذلك عاهرة رديئة؟

لون الغضب الأحمر طغى على وجنتي المرأة.

ـ كيم كانت أعقل من إظهار العدائية.

فرفعت سابينا حاجبيها، وقالت ببرود:

ـ أما أنا فلا! آسفة سيدة فريستون... لقد ظننت أن هذا وقت الصدق.

ـ صحيح... لذلك أقول لك انني لم أحبك بقدر ما كرهت كيم... ونحن بكل تأكيد لن نخطىء ثانية بإدخال أحد من عائلة بيرنت إلى عائلتنا!

ـ لكن فيليب ينتمي أيضاً إلى عائلة بيرنت.

نظرت إليها روزي بازدراء:

ـ عنيتك أنت سابينا. أقول ذلك لئلا تسوّل لك الصحف أفكاراً خاطئة.

فشهقت:

ـ كأن أتزوج باتريك؟

ـ تماماً.

ـ ألن يكون له رأي في من يريد الزواج منها؟

ـ طبعاً... وأستطيع القول لك منذ الآن... انه لا ينوي الزواج.

فابتسمت سابينا بلؤم:

ـ أنت آمنة إذاً؟

فتفرست بها المرأة بعينين ضيقتين شريرتين.

ـ إلا إذا حاولت فرض المسألة... فهو لن يسمح بأن يصيب فيليب ضرراً.

ـ وأنا لن أضرّه أبداً!

أحست بالتعب من جدالها العقيم مع هذه المرأة:

ـ هل أذكرك سيدة فريستون أننا في جنازة؟ وليس هذا الوقت المناسب لمثل هذه الأقوال؟

ـ لا وقت أفضل منه... لقد خلفت كيم لنا المتاعب، كعادتها... وكانت تعرف إلى ماذا ستؤدي هذه الوصاية المزدوجة.

ـ لم تكن في حالة تسمح لها بالتفكير في الانتقام منكم.

ـ شقيقتك كانت وصمة إحراج لعائلتنا، منذ اليوم الذي دخلت فيه إليها!

ـ لماذا؟ ألم ترتفع إلى مستوى عائلتكم؟

ـ أبداً بل ما كانت لتصل إلى هذه المرتبة! ولولا حملها لما دام زواجها هذه المدة.

ـ أتعنين أنها حملت قصداً، لمأرب ما؟

ـ طبعاً... فإنجاب وريث للعائلة كان سيضمن بقاءها زوجة رجل ثري. مع أنني أعلم أنّ تشارلز لم يكن يريد أولاداً بعد.

ـ لكن الحمل قد يقع أحياناً وإن احتطنا لمنعه.

ـ الخطأ ما كان ليقع مع تشارلز.

فشحب وجه سابينا:

ـ هل تقولين... تلمحين إلى...

ـ إلى أن هناك رجلاً آخر متورطاً في تكوين فيليب؟ رجلاً غير تشارلز؟ أستطيع القول أن هذا ممكن!

ـ لا أصدقك... أنت تختلقين هذه الأشياء... كيم ما

كانت لتقيم علاقة أخرى مع رجل لأنها كانت تحب تشارلز.

ـ كانت تعلم أن زواجها فاشل... وهي ليست المرأة الأولى التي تحمل عن سابق تصميم لتحافظ على زواجها... وإن كان الحمل من رجل آخر.

ردت عليها سابينا ببرود:

ـ لا أصدقك. كيم لم تكن قادرة على فعل ما تتهمينها به.

فالتوى فم روزي بسخرية:

ـ صدقيني كانت قادرة.

فقطبت ونظرت إليها مفكرة:

ـ هل أنت جادة حقاً في ادّعاء أن فيليب ليس ابن تشارلز؟

ـ جادة كل الجد... لكن والدتي مؤمنة بأنه ابنه وهذا هو المهم.

ـ فحص الدم إذن...

ـ قد يبرهن صدقي، وربما لا يبرهنه. هل ستقومين بذلك وأختك الآن ميتة؟

علمت سابينا أنها لن تستطيع... فوالدها لن يغفر لها هذا أبداً... وهي لن تصدق كلمة واحدة فاهت بها هذه المرأة...

وأكملت المرأة:

ـ لا أظن هذا... عودي إلى بلادك سابينا... أنت غير مرغوب فيك هنا.

ثم تركتها مبتعدة وكأنها لم ترتكب ما ألم سابينا.

رفعت سابينا عينيها بعد إحساسها بأن شخصاً يراقبها فاصطدمت بعينين رماديتين متسائلتين. كان باتريك يتحدث إلى رجل عجوز... لكن اهتمامه انصب عليها. فالتفتت مبتعدة،

ترغب في الهرب وفي أن تكون وحدها، لتفكر فيما تمتعت روزي فريستون بقوله لها.

السيدة بريد كانت في غرفة الطفل مع فيليب... تهدهده وهو يصيح بشكل غريب. فابتسمت عند رؤية سابينا:

ـ أظنه تناول كمية كبيرة من الحليب.

فابتسمت وهي العارفة بمدى قابلية ابن اختها.

ـ ربما... اذهبي إلى المطبخ واحضري لنفسك كوب شاي. سأبقى مع فيليب.

ـ حسناً... إذا كنت واثقة...!

ـ أجل.

كانت تعلم أنها بعد خبث روزي فريستون، تحتاج إلى براءة فيليب. مدت يدها لتأخذ الطفل الباكي من الممرضة... وإذا به يصمت بفعل ساحر ما إن أصبح بين ذراعيها. فنظرت إليهما الممرضة وقد انفرجت أساريرها لمنظرهما:

ـ لقد عرفك!

ردت بوداعة وهي تحتضن الكائن البشري الصغير:

ـ عرفني!

رفع عينيه الصغيرتين الزرقاوين إليها، وأخذ يرضع قبضة يده. فتمتمت السيدة:

ـ لقد عرف أنك تحبينه... نعم أنا أحبه أيضاً... لكنه أحس بأن حبنا له مختلف... الأطفال أذكياء.

تساءلت سابينا عما إذا كان هذا هو سبب بكاء فيليب عندما تحمله ليزا كيندل أو ابنتها... وهذا هو سبب سكونه ونومه بين ذراعي باتريك؟ لكن باتريك جزء أساسي من هذه العائلة

الكريهة... ومع ذلك فيليب يثق به غريزياً. لكن هل يشبه فيليب تشارلز؟ إن شعره أحمر كشعر أمه وعينيه زرقاوين كأمه وأبيه... بالطبع هناك ذقنه الصغير الذي يشير إلى العناد... لكن كيم كانت عنيدة شرسة، وهي أيضاً لا تخلو من عناد... لا... لا شيء يدل على أن فيليب هو من عائلة كيندل.

ـ اعتقدت أنني سأجدك هنا!

أجفلها صوت باتريك الخشن... هل يظن هذا الرجل أن كيم كانت على علاقة برجل؟ أو يشك في نسبة فيليب إلى أخيه؟ لو أن هذا صحيح... فلن تحتاج لفهم سبب كراهية أمه لكيم.

ردت عليه ببرود:

ـ لم استطع تحمل ذلك «السيرك» الدائر تحت.

ـ أتعتقدين أنه كان عليهم إظهار الاحترام أكثر؟

ـ الاحترام يمكن أن أفهمه... لكنهم كانوا يتصرفون وكأنهم في حفلة!

ـ أتفضلين أن يقفوا باكين؟

ـ سيكون ذلك على الأقل طبيعياً أكثر!

فتنهد:

ـ وهل اختفاؤك هنا طبيعي؟ ضعي فيليب في فراشه فقد نام منذ عدة دقائق.

فوضعته في مهده، ثم عقدت ذراعيها، إذ لا شيء يشغلهما الآن.

ـ لماذا لا نجتمع إلا في هذه الغرفة؟

فبللت شفتيها بلسانها:

ـ لأنني أقضي أكثر أوقاتي فيها.

قال بلطف:

ـ لم أكن أنتقد... بل أقرر أمراً واقعاً.

ـ لكن الوقائع قالت لي سيد كيندل ان الجنازة لم تكن سوى مناسبة سانحة لتمثل أمك دور المضيفة الأنيقة ولأتلقى الإهانات من شقيقتك المتعجرفة.

ـ روزي؟

ـ هل لديك أخرى؟

ـ ماذا قالت لك؟

ـ ليس المهم معرفة كلماتها بالضبط، فبعضها كان شبيهاً بما قلته لي عندما جئت إلى لوس انجلوس.

ـ أظنني قلت إنني ندمت على ما تفوهت به.

ـ وأنت قبلت اعتذاري الخفي دون كلمات.

ـ أفهم أن تصرفاتك نابعة من ألمك... لكن لا تدفعيني أكثر مما يجب.

ـ لا أدفعك أكثر مما يجب؟ وهل يُفترض بي القبول بإهانات هذه العائلة كلها؟ ورغم ذلك تقول لي لا تدفعيني أكثر مما يجب؟ حسناً... لدي بعض الأخبار لك... اوه...

شهقت بعد أن شدها إليه، فاتسعت عيناها مرتبكة من قساوة قبضته.

ـ باتريك.

ـ أجل... باتريك... سابينا، يا إلهي ما أجملك!

وسرعان ما أصبحت بين ذراعيه يعانقها بقوة وشغف حتى أحست بجسدها يلتحم بجسده. وكان هذا آخر ما تتوقعه...

فقد ذابت عند أول لمسة منه... وأحست بالسعادة لاعتمادها على قوته في الوقوف... وكان من الممكن أن يستمر هذا العناق إلى الأبد، فلمشاعرهما معاً الحرارة والقوة ذاتها. لكن شهقة من الباب المفتوح أبعدتهما عن بعضهما، فإذا بهما يريان ليزا كيندل تنظر إليهما بذعر.

●●●

فراشة المحبة

٤ ـ اتهامات عينيه

ابتعدت سابينا أولاً عن ذراعي باتريك، لكنه شدهما للحظات حولها، ثم تركها، ملتفتاً إلى المرأة الواقعة بالباب بعينين فولاذيتين يسأل ببرود:

ـ أتريدين شيئاً أمي؟

شمخت الأم بقامتها أقصى شموخ:

ـ جئت لأقول لك إن عمك سيمون سيغادر... ولم أحسب أنني سأقطع عليكما... شيئاً.

نظرت إلى سابينا بازدراء متكبر. وكأن الأمر غلطتها هي وحدها، وتقدم باتريك من الباب، وقال لأمه بقساوة، دون الرد على إشارتها الواضحة لما رأته:

ـ هل لنا أن ننزل إلى القاعة أمي؟

ـ أود الحديث مع سابينا...

ـ فلينتظر حديثك إلى ما بعد.

ـ لكن...

فالتفت إلى سابينا وكأنه لم يسمع احتجاج أمه:

ـ سأتحدث إليك لاحقاً سابينا... لا بأس في هذا؟

ـ أجل... لا بأس.

أخذ باتريك أمه معه، تمسك يده مرفقها بحزم... فشكرت سابينا الله على حسن تصرفه، لأن آخر ما كانت تتمناه هو جدال عقيم لئيم مع ليزا كيندل.

كان الضيوف قد بدأوا بالمغادرة عندما نزلت سابينا إلى القاعة، فلاحظت أن روزي وزوجها غادرا. ولاحظت أن ليزا كيندل رمقتها بازدراء، لم تستطع الرد عليه لأنها تحس بالذنب، وهذا هو السخف بحد ذاته. فباتريك هو من بدأ بالعناق، وكل ما فعلته أنها استجابت وقد تعيد الكرة ثانية إن عاد لمعانقتها.

خلال العشاء أخذت ليزا تراقبهما عن كثب، وكأنها تتوقع منهما العجز عن إبعاد أيديهما عن بعضهما بعضاً... فكبحت سابينا انبساطها بجهد، مع أن باتريك بدا غاضباً من تصرفات أمه.

بعد العشاء طلب من سابينا بكل هدوء:

ـ هل لك أن تأتي إلى مكتبتي قليلاً؟ أو أحدثك قبل سفرك في الغد.

بدأت نبضاتها تتسارع وهي تفكر في أنهما سيكونان وحدهما ثانية، متسائلة ما إذا كان سيكرر عناقها. فقاطعتهما أمه بعجرفة:

ـ إن ما ترغب في قوله تستطيع البوح به أمامي باتريك.

ـ لا... لا أظن هذا!

قال ذلك ثم جذب كرسي سابينا لتقف... فاحمر وجه المرأة المسنة:

ـ لماذا؟

نظر إليها بتكبر:

ـ لو أخبرتك لماذا، لما اضطررت للحديث إلى سابينا على انفراد.

ـ إذن...

فقاطعها ببرود واقتضاب:

ـ عن إذنك أمي...

ـ لكن باتريك...

ـ فيما بعد أمي...

وأخرج سابينا من الغرفة ويده على مرفقها بقوة. ما أشرس هذا الرجل! فعندما يقول شيئاً يعجز الآخرون عن مجادلته. نار صغيرة أشعلت في مدفأة المكتبة، فالأمسيّات كانت باردة في الخريف.

جلست سابينا في المقعد المقابل له أمام الطاولة. فقال لها مشيراً إلى أريكة جلدية أمام النار:

ـ تعالي واجلسي هنا. إنه مريح أكثر.

تحركت لتجلس معه وهي تقول:

ـ هل أنا بحاجة لأن أكون أكثر راحة؟

فضحك:

ـ لِما سأقوله... أجل. أظن هذا.

ـ يبدو الأمر منذراً بالشر.

ـ لعله ليس كذلك، فحديثي يتعلق بفيليب.

ـ طبعاً.

لماذا أحست بخيبة الأمل؟ أليس فيليب هو السبب الوحيد لوجودها هنا؟

ـ مع أن مشاكلي في حل هذه المشكلة ليست عادية.

ـ فيليب أصغر من أن تفكر في وضعه في مدرسة داخلية.

ولم تسرّه دعابتها بل زدات فمه توتراً:

ـ لن أرسله إلى مدرسة داخلية... أبداً.

اتسعت عيناها:

ـ ظننتكم جميعاً آل كيندل تذهبون إلى مدارس داخلية؟

ـ هذا صحيح لذا لن أرسل ابناً من أبنائي إلى مدرسة داخلية.

ـ فيليب ليس ولدك.

ـ ليس بعد... لكنني أخطط ليصبح ولدي. وأظنك يجب أن تكوني أمه.

فابتلعت ريقها:

ـ ماذا تعني؟

ـ من الواضح أنك تحبين الطفل كثيراً، وأظن أن الصحافة قد أوحت لنا بالحل... لذا علينا الزواج.

حدقت سابينا فيه بعينين واسعتين مصدومتين... أتتزوج باتريك كيندل؟ هذا ليس أمراً غير عادي بل إنه مناف للعقل!

ـ أرى أن الفكرة أدهشتك. لكنني لا أرى حلاً آخر. أنا أرفض التخلي عن فيليب، وكذلك أنت... وإذا كنا لا نرغب في أن ينشأ في الطريق عبر طرفي الأطلنطي كل ستة أشهر، فلا أعرف ما قد نفعل غير هذا؟

ـ لكن عملي هناك.

ـ أتحبين عملك؟

ـ أجل.

- إذن علينا إيجاد طريقة لحل هذه المعضلة... قد أنقل المقر العام لمؤسسة كيندل إلى أميركا حتى أكون قريباً منك ومن فيليب.

- لا! أعني... هل ستقوم بذلك حقاً؟

فهز رأسه:

- نعم إن لم يكن أمامي خيار آخر، فلفيليب الأولوية.

- وأنت...؟ ألا ترغب في الزواج من امرأة تحبها؟

التوى فمه وازدادت برودة عينيه:

- الحب هو إحساس مدمر، يُشل من يحب ويجعله دون إرادة، عرضة لكل أنواع المخاطر... لا... لا أريد أن أتدمر بهذه الطريقة... زواجنا سيكون زواج مصلحة...

- لكن هذا ذهب مع العهد الفيكتوري إلى غير رجعة.

- لكنني لم أقل إنه يجب أن يكون زواجاً عذرياً، فلن أبقى عمري كله أعزب. وأنت لم تجدي عناقي لك مقرفاً اليوم. وهذا يعني أنك لن تجديني زوجاً كريهاً كذلك.

لم تتوقع منه أن يتحدث بهذه الطريقة... فقالت له على استحياء:

- أنا واثقة أنني لن أجدك مقرفاً... لكنني لن استطيع الزواج منك.

- لمَ لا؟ قلت إنك لن تتزوجي ذلك الرجل... طوني. فكري فيّ على أساس أن علاقتنا ستكون دائماً مؤقتة. وأؤكد لك أنني لن أفرض نفسي عليك أكثر مما يجب. فأنا عادة قادر على ضبط متطلباتي مع النساء.

لم تستطع تقبل ما يقال لها بهدوء... فسألته:

- هل أتزوجك فقط لينال فيليب أبوين؟... وفي بعض الأحيان تقوم برحلة من غرفتك إلى غرفتي... أليس كذلك؟

- الأمر الأخير يحدث من جهتك أو جهتي... فللنساء حاجتهن أيضاً.

لمعت عيناها بغضب عميق:

- إذن، إذا احتجت أنا إلى رجل، آتي بكل بساطة إلى غرفتك؟

- وما الخطأ فيه؟

فصاحت به بشراسة:

- لا شيء إذا كنت آلة لعينة. فما تعرضه عليَّ أمر غير إنساني!

بدت تقطيبة حيرته حقيقية:

- لا أراها كذلك.

- هذا واضح!

- انظري... إذا كنت قلقة من عدم قدرتي على القيام بواجبات زوجية مرضية... فأنا اطمئنك إلى أنك مخطئة.

ارتدت سابينا خائفة وهي ترى التصميم البارد في وجهه، قالت:

- هذه ليست الطريقة المثلى للحب بين زوجين...

- ربما أنت على حق... لكنني أردت إظهار مقدرتي لك.

فدفعته في صدره بقوة:

- أنت عملي...!

- وقد أصبح عاطفياً... أنت جميلة سابينا... فدعيني أظهر لك ما سيكون عليه الأمر بيننا.

ثم انحنى يعانقها برقة لم تلبث أن تحولت إلى نار مشتعلة أفقدتها الإحساس بأي شيء في العالم إلاّه، فقد غرقت في مشاعرها وراحت تستجيب له وتبادله عناقه بحرارة وشغف.

بعد لحظات طويلة من العناق والمداعبة جذب نفسه عنها قائلاً:

ـ لا...! أتظنين أنني لا أريدك...؟ لكن ليس هنا، كما أنني لا أريد تعقيد الأمر بعلاقة بيننا. موافقة؟

فردت لاهثة:

ـ موافقة. فأنا كذلك لا أريد تعقيد الأمور أكثر. ومع ذلك فلن استطيع الزواج منك، باتريك.

ـ ألن تفكري فيه؟

ـ لن أفكر... إذ لن ينجح هذا باتريك. فكل المشاكل التي جعلت كيم غير سعيدة ستقع عليّ كذلك إن أصبحت زوجتك.

ـ أية مشاكل؟

ـ أمك... والعيش معها... وجنسيتي... أضف إلى ذلك انعدام الحب بيننا، الحب الذي قد يساعد على إنجاح زواج.

ـ حسناً... لكن هذا بالضبط سبب يكفي لانجاحه... وأمي مشكلتي لا مشكلتك. كما أنك لم تظهري الكره لانكلترا أثناء وجودك فيها. ثم أنني سأسمح لك بمزاولة مهنتك.

نظرت إليه بحيرة:

ـ هل أستطيع مزاولتها؟

ـ بالطبع. إذا كان دورك في المسلسل الأخير قياساً لتمثيلك

تحرام أن تتوقفي.

ـ لكن هل فكرت أنني إن أكملت تمثيل المسلسل فسأبقى ستة أشهر في أميركا... آه... فهمت الآن. إذا تزوجتك سيبقى فيليب هنا دائماً، وعليّ أن أسافر أنا ستة أشهر كل سنة... لا مجال لهذا باتريك!

فنظر إليها متعالياً متعجرفاً:

ـ أما قلت لك إنني سأنتقل إلى أميركا إذا كان هذا ما تريدين. كل ما أريده أن اؤمن لفيليب حياة مستقرة مهما كان الثمن.

تحول غضبها إلى ارتباك فهو يعني ما يقوله، وقد عرفت ذلك من النظرة المصممة في عينيه. وما عليها سوى أن تقول الكلمة... لكنها لن تستطيع طلب هذا منه... مهما كانت تكره ليزا كيندل، فلن تستطيع فعل هذا بها. فقد خسرت ولداً! وخسارة الآخر... وحفيدها كذلك... سيحولها إلى حطام...

ـ اسمعي... لا تفكري في الأمر الآن. عودي إلى بلادك... ما من داعي للعجلة... فبضعة أسابيع لن تغير شيئاً. وأظنك بحاجة لفترة من التفكير.

ـ أنت... ألم تفكر؟

ـ بلى ولكن ليس طويلاً... لكن الأمر مختلف بالنسبة لي... فلن أخسر شيئاً بزواجي منك.

ـ وحريتك؟

ـ هذا ليس بالكثير. ثم أنني سأكسب أكثر... زوجة جميلة... وابناً صحيح الجسم.

احمر وجه سابينا للاطراء:

ـ الأمر حقاً بحاجة إلى تفكير يا باتريك.

ـ تريثي في التفكير فلن استعجلك.

بدأ التفكير منذ تلك الليلة، حتى كادت تعجز عن النوم، فكانت تقلب الفكرة من كل الزوايا والوجوه، وفي كل مرة كانت تخرج بالجواب ذاته. لكنه جواب لم تقبل به. أميركا موطنها، وطوني صديقها... وأبواها لا يبعدان كثيراً عنها... وليست بحاجة إلى رجل معقد مثل باتريك كيندل في حياتها... إنه له عمقاً لم تعرفه في رجل من قبل!

كادت تستدير وتهرب عندما دخلت غرفة الطعام في اليوم التالي حث وجدت ليزا كيندل وحدها. تبتسم بخبث وتخبرها بأن باتريك تناول طعامه ثم قصد مكتبه ليتم بعض الأعمال المكتبية المستعجلة قبل أن يوصلها إلى المطار... أضافت ليزا كيندل ببرود:

ـ ... وهذا يعطينا فرصة لنتحدث وحدنا.

سرعان ما تصلبت سابينا... فإذا بدأت هذه المرأة بإهاناتها فلن تتمكن من تناول شيء من الطعام.

ـ عمَّ أراد باتريك أن يكلمك ليلة أمس؟

اتسعت عينا سابينا لهذا الهجوم المباشر. فحاولت المراوغة:

ـ ألم يخبرك؟

نظرت ليزا إليها نظرة حاقدة:

ـ ما كنت لأسأل لو أخبرني! باتريك كان دوماً شخصاً منطوياً. لكن لا شك عندي في أنه سيخبرني... في الوقت

المناسب.

ـ لكنك تفضلين عدم الانتظار؟

ـ صحيح!

سحبت سابينا أنفاساً عميقة متظاهرة بارتشاف قهوتها ببطء. ثم أعطتها الرد الوحيد المستطاع في مثل هذا الظرف:

ـ لن أخبرك أيضاً... فلو أراد باتريك إخبارك لأخبرك. أنا أخشى أن تكوني مضطرة للانتظار حتى يقرر إخبارك بنفسه.

انقلب وجه المرأة العجوز إلى قناع بشع من الغضب، فصاحت:

ـ لا تتذاكي علي معتمدة على عناق واحد سابينا! فذاك العناق لا يعدو أن يكون مؤاساة لك خرج خلالها عن السيطرة على نفسه.

ـ صدقي ما شئت... فلن أضيف كلمة على ما قلته لك.

ردت ليزا ساخرة:

ـ لا تضيفي كلمة... فلدي ثقة كافية بباتريك تدفعني إلى ألا أصدق تورطه مع امرأة مثلك!

ـ كفى!

التفتت سابينا فرأت باتريك واقفاً بالباب ورائهما، يقول بغضب وتجهم:

ـ لن أقبل إهانة سابينا بعد الآن يا أمي...

ـ لكن...

فتجاهل أمه وقطع احتجاجها موجهاً الكلام لسابينا:

ـ أنا حاضر للمغادرة إلى المطار الآن إذا كنت جاهزة سابينا.

فابتسمت له شاكرة ووقفت:

- يجب أن أودع فيليب أولاً.

فردت العجوز بعجرفة:

- لن يفهم.

فرد باتريك بصوت رقيق:

- إن هذا ليس وداعاً.

فصاحت الأم بحدة، ناسية الحذر من لسانه اللاذع:

- ليس وداعاً؟

فنظر إليها ببرود:

- سابينا تنويُ العودة إلينا بعد بضعة أسابيع.

فاحمّر وجه أمه:

- ما كنت أعلم هذا.

- اوه... إنها ستعود دون شك فعليها التفكير في مستقبل فيليب أليس كذلك؟

نظر إلى سابينا متحدياً... فغضّت طرفها وردت بصوت خفيض:

- هذا صحيح... لكنني لست واثقة حتى الآن كيف سيكون الأمر.

- قلت لك، لا داعي للعجلة.

ليزا كيندل لم تعد تحتمل أكثر... فقاطعتهما بحدة:

- ماذا يجري هنا؟ باتريك أريد معرفة ما يجري بينكما؟

فرفع حاجبيه متكبراً:

- لا شيء «يجري» في الوقت الحاضر. أمي! ولو أن شيئاً يجري، فهو شأني وشأن سابينا الخاص. وإن كان علي إخبارك

شيئاً ما فسأفعل... أما الآن فنحن مضطران للخروج.

أمسك ذراع سابينا بحذر ثم خرجا معاً. وما أن أصبحا بعيدين في الردهة حتى تنهدت بارتياح ونظرت إليه:

- واو! لست أدري كيف تجرؤ على التحدث معها هكذا.

- بالممارسة... اذهبي والقي نظرة سريعة على فيليب... فليس أمامنا وقت طويل للوصول إلى المطار.

تحطم قلب سابينا وهي تودع الطفل... وكأنما فهم أنها مسافرة، فبدأ بالبكاء، وأصبح وجهه الصغير أحمر. فقبلت وجنتيه، وهي تشعر بأنها ستشاركه البكاء.

- لن اتأخر... أعدك يا طفلي!

دخل باتريك الغرفة عندئذ وقال بخشونة:

- لا تقطعي وعوداً لن تتمكني من الوفاء بها.

- اوه... سأفي بها... لكنني لا أدري إن كنت سأقيم بعدها هنا أم لا.

فرد بلطف:

- يجب علينا التحرك فعلاً سابينا. فأنا مضطر للذهاب إلى المكتب بعد إيصالك.

- آسفة... أنا مستعدة.

أعادت الطفل إلى مهده... ثم ارتدت على عقبيها دون أن تنظر إلى الخلف. وقد حافظت على تمالك ذاتها حتى أصبحا في منتصف الطريق إلى المطار، فعندها لم تعد تستطيع الادعاء بأن صراخ فيليب لم يؤثر فيها... اوه... كم ستفتقد الطفل! امتدت يد باتريك تمسك بيدها:

- أعلم... وهو سيفتقدك كذلك.

سألته وهي تبكي:

ـ هل سيفتقدني؟ حقاً؟

فواساها بلطف:

ـ أنا واثق من هذا. أنت تقللين من قدرته على فهم حبك.

ـ لقد قالت السيدة بريد الشيء نفسه تقريباً.

ـ قلت لك انها ممرضة قديرة.

فسحبت يدها من يده:

ـ أعرف أنها قديرة... وطيبة... لكنها أخيراً ستتركه، فماذا سيحدث لفيليب عندها؟

ـ هذا قرار علينا معاً القيام به عندما يحين الوقت.

بدت لوس انجلوس، كما هي دوماً، مليئة بالدخان. لكنها مدينة جميلة أحبتها سابينا بعد أن أقامت فيها سنتين... سرتها العودة إليها. فرمت نفسها بين ذراعي طوني عندما استقبلها في المطار. سألها بتعاطف وهو يحيط كتفيها بذراعه.

ـ كان الأمر سيئاً... هه؟

ـ جزئياً... هل لنا ألا نتحدث عن الأمر... ليس بعد طوني!

فضمها أكثر:

ـ لا بأس حبي... فلنتحدث عندما تكونين على استعداد.

ـ قل لي كيف يسير العمل.

ـ كالعادة... أظنهم ينتظرون رؤية ردة فعلك على توقيع عقد آخر قبل أن يقرروا ما سيفعلون بالشخصية التي تمثلين دورها. فهناك شائعات تقول إنك قد لا ترغبين في الاستمرار.

ـ هذه ليست شائعات طوني... لقد قلت هذا بنفسي لجول

قبل أسابيع.

ـ إنه قرار يخصك حبيبتي.

كان يروقها دائماً لطف طوني وابتعاده عن الخشونة وطريقته في احترام آرائها ورغباتها... لكنها الآن بحاجة إلى مساعدة أكبر لتتخذ قراراً مهماً في حياتها. ومع ذلك لن تستطيع التحدث عن الأمر مع طوني...

في اليوم التالي سافرت إلى منزل والديها... وصدمها وضع أبيها المريض، فرغم مغادرته المستشفى ما زال يبدو هزيلاً ضعيفاً فموت كيم صدمه أكثر منهم جميعاً.

قال لها بصوت حزين وهو يجلس على شرفة المنزل:

ـ أريد رؤية حفيدي.

فقالت الوالدة بهدوء:

ـ سيمر شهران قبل أن يُسمح لك بالسفر، هذا ما قاله الأطباء.

ـ ماذا يعرفون؟

ـ حسناً... أنا أعرف أنك لست على ما يرام.

كانت أمها قوية قادرة على حمل عبء المسؤولية... وكانت تقوم بواجباتها على خير ما يرام. فتوسل الأب ابنته:

ـ كيف يبدو سابينا.

أخبرت سابينا أباها أن فيليب يشبه الأطفال الذين يولدون قبل أوانهم ثم قضت نهارها تخبرهما عما يقوم به من أعمال صغيرة.

ـ يجب أن ينادى باسم فيل وليس فيليب... إنه اسم كبير

جففت سابينا وجنتيها من البكاء:

- أعلم هذا... سأحضره حالما أستطيع.

- وماذا سيقول باتريك كيندل عندها؟

أشاحت بوجهها عن أمها... باتريك سيوافق على احضار الطفل إلى هنا على شرط واحد... وهي تعرف هذا:

- إنه... أظنه سيوافق.

استمر ضغط العمل في الأسبوع التالي فلم تكد سابينا تجد وقتاً للنوم فكيف لاتخاذ قرار يتعلق بما طلبه باتريك منها. استمرت في الخروج مع طوني عندما كانت تسمح ظروف العمل... عشية عودتها ثانية إلى انكلترا تناولا العشاء معاً في بيته على الشاطىء. حيث سألها:

- متى ستعودين هذه المرة.

فابتسمت مسترخية بكسل على الرمال الذهبية تحت أشعة شمس النهار المحتضرة.

- جول أمهلني أياماً... لا أكثر.

قلدت صوت المخرج بنجاح:

- ثم عودي آخر اسبوعين من التصوير.

- وبعدها؟

- كنت آمل أن لا تسألني هذا.

- ولماذا لا؟

- لأنني... لا أظنني سأعود بعدها.

لم يستطع اخفاء ذهوله، فقال مقطباً.

- لست أفهم... هل ستقضين في انكلترا وقتاً غير محدّد؟

- هذا... ممكن... لست واثقة بعد.

على طفل. (قال لها أبوها).

- انه اسمك.

- بالطبع عائلة كيندل تتمسك بالاسم حرفياً.

- طبعاً... فباتريك يصر على هذا.

فنظرت إليها أمها متفرسة:

- يجب أن أقول إنه كان دائماً مؤدباً.

فقال زوجها:

- التأدب لا يكلف شيئاً. خاصة بالنسبة لعائلتهم. يظنون أنفسهم يملكون هذا العالم اللعين!... حسناً... أنا أريد حفيدي هنا، حيث ينتمي. كان يجب أن تحضريه معك.

- ما زال صغيراً لا يقوى على السفر يا أبي...

- حسناً... حالما يكبر ويصبح قوياً... أريده هنا.

فتجنبت سابينا نظره وعضت على شفتها:

- قد يكون في هذا بعض الصعوبة أبي... أترى... باتريك مصمم على حضانة الصبي.

- ومن هو ليقرر مصير حفيدي؟ ما كان على كيم...

ثم أجهش بالبكاء فدُهشت سابينا وتحطم قلبها من رؤية هذا الرجل الذي لم تعرفه إلا قوياً باكياً... فهي لا تذكر أنها رأته يوماً يبكي حتى عندما مات والده منذ سنوات.

راقبت دموعه وأمها ترافقه إلى غرفة نومهما. وبقيت جامدة في مقعدها تفكر. فلما عادت والدتها بعد عدة دقائق، قالت لها بلطف:

- خسارة كيم بهذه الطريقة كان صعباً عليه... ومعرفته بوجود حفيد له يبقيه حياً.

فرد بصوت رقيق:

ـ أما من طريقة لأقنعك بالبقاء في لوس انجلوس؟ فمنذ وفاة زوجتي وأنا أعيش في وحدة قاتلة. وقد ساعدتني الأشهر الأخيرة على ملء الفراغ.

ضغطت على يده المستقرة على الرمل إلى جانبها.

ـ أنا مسرورة بهذا. أنت رجل رائع يا طوني... تستحق السعادة.

ـ لكن ليس معك؟

فهزت رأسها بحزن:

ـ لا أظن... لقد تمتعت بصحبتك، وأحببت كل لحظة منها... لكن ربما هذا يشكل نصف المشكلة... فالحب ليس كله فرحاً... وقد أظهر زواج كيم هذا... ماذا يسمون هذا في الكتب؟ عذاباً ونشوة؟

ـ هكذا كانت حياتي مع زوجتي...

ـ ومعي أنا؟

إنها تعلم أنها لم تصل إلى القمة أو إلى البداية مع طوني... فالتمتع بالصحبة لا يكفي... فقد أظهر لها باتريك ما هي النشوة على الأقل.

فأجاب مرتبكاً:

ـ حسناً... أنا...

ـ اعلم يا طوني أن لا شيء بيننا. لا بالنسبة لك أو بالنسبة لي... لقد مرحنا معاً... فلنترك الأمر على حاله.

ـ هل التقيت بالرجل هنا أم في انكلترا؟ في انكلترا طبعاً.

ـ أي رجل؟

ـ من عرفك على عذاب النشوة... الرجل الذي وقعت في حبه.

فطغى الدم على وجهها:

ـ لم أحبه! باتريك كيندل ليس من أحبه... أقبل به لكنه ليس الحبيب.

لا... إنها لا تحب باتريك... لكنها ستتزوجه... فالأسبوع الأخير الذي قضته دون فيليب أظهر لها أنه جزء لا يتجزأ منها كأنها هي من أنجبته كما أن تجاوبها مع باتريك لا يمكن نكرانه... لقد اشتاقت إليه وإلى أحضانه وهي غائبة عنه. ثم... هناك أبوها... لن تستطيع تحمل اتهاماته إن خسرت فيليب.

الزواج إذن... هو الحل الوحيد... لكن مع بعض التغيير في الترتيبات التي اقترحها باتريك.

● ● ●

فراشة المحبة

٥ ـ زوايا النسيان

عندما لامست الطائرة أرض مطار هيثرو تعاظم توترها وعندما استقلت السيارة أحست بتوترها يزداد ويتضاعف. ما من شك أن باتريك كان سيرسل سيارة، أو يحضر بنفسه لاستقبالها لو أعلمته بموعد وصولها. لكنها فضلت الوصول حسب إرادتها هي، وفي الوقت المتاح لها. فهي لن تتخلى عن جزء صغير من حريتها واستقلاليتها عندما تصبح زوجة.

لم يرحب بها الخادم الذي أبلغها أن ليزا كيندل في منزل ابنتها، وأن باتريك لم يصل بعد من مكتبه... على الأقل وجود ليزا خارج المنزل سيمكنها من التحدث إلى باتريك على حدة.

كان الطفل رائعاً كالعادة، أمضت معه بعض الوقت... مذهولة بالتغيير الكبير الذي طرأ عليه خلال أسبوع واحد... وقد غرقت في مداعبته وملاعبته حتى نسيت تغيير ملابسها للعشاء... لكن الخادم جاء ليقول:

ـ اتصل السيد كيندل منذ دقائق آنسة بيرنت، وكان ينوي قضاء ليلته في لندن. لكن عندما أبلغته بوصولك قال إنه سيعود

في وقت ما هذا المساء... فاجتماع عمل قد يؤخره قليلاً.

في الواقع، لم يتسنَ لهما اللقاء ليلتها، فبعد العشاء اللذيذ، جلست في غرفة الطفل بعض الوقت ثم انتابها التعب فها قد بلغت العاشرة وباتريك لم يصل بعد... فدخلت غرفتها... وتهيأت للنوم الذي سرعان ما غلبها!

في الصباح التالي فوجئت بليزا كيندل في غرفة الطعام وحدها... فصاحت المرأة بها:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ كنت تعلمين أنني عائدة!

ـ اوه... أعلم. لكنني لا أفهم السبب؟ لماذا لا تتركين فيليب لنا وتتوقفي عن تقطيعه إلى نصفين؟ سيكرهك في النهاية لهذا السبب... أتعلمين هذا؟

ألا تعلم!... إنه جزء من الأسباب التي دفعتها إلى اتخاذ ذاك القرار، هذا عدا عمّا يجذبها إلى باتريك...

سألت لتغيير الموضوع:

ـ هل تناول باتريك فطوره بعد؟

ـ إنه ليس هنا... لم يعد ليلة أمس.

ـ إن الاجتماع أخرّه.

فسخرت ليزا بابتسامة خبيثة:

ـ اجتماع عمل؟ أهذ ما ذكره الخادم؟ حسناً... ما من شك في أن هذا ما أمره به باتريك... فهو لا يبقى في لندن للعمل...

فوقفت سابينا بعصبية:

ـ لو عذرتني... عليَّ توضيب حقائبي.

ـ كم ستمكثين بيننا هذه المرة؟

ـ حتى الغد فقط.

ـ أعتقده سيعود قبل سفرك... وآمل عندها ألا نرى فرداً آخر من عائلة بيرنت.

ـ لست أرغب في هذا النقاش.

فردت بمرارة:

ـ ابني أجابني بالرد ذاته خلال أسبوع كامل... وأعتقد أنه عندما سيكون مستعداً سيكلمني عما يقلقه.

قالت سابينا ساخرة:

ـ أنا واثقة من أنه سيفعل.

ثم ذهبت إلى غرفة فيليب حيث أمضت معه فترة الصباح كلها منتظرة عودة باتريك. فتلميحات والدته تشير إلى أنه كان مع امرأة الليلة الماضية، لا في اجتماع عمل. أحست بالغيرة تنهشها... ما أسخف ما تشعر به! لا تحب الرجل حتى ومع ذلك تغار لأنها ظنت أنه قضى ليلته مع امرأة أخرى!

سمعت صوت سيارته تقف عند الباب بعد الظهر. أسرعت إلى النافذة فرأته ينزل منها... في تلك اللحظة أحست بشيء ما يحثها على الركض إليه وعلى رمي نفسها بين ذراعيه! لكنها لم تفعل!

التفتت بحدة عند سماعها طرقة عالية على باب غرفتها، فأذنت للطارق بالدخول، لكنَّ أنفاسها توقفت عندما شاهدت باتريك يدخل... أحست سابينا فجأة بالخجل، وهذا سخيف بالنسبة لفتاة في السادسة والعشرين من عمرها:

ـ كيف حالك؟ (سألته).

ـ أنا بخير... هل شاهدت فيليب؟

ـ أمضيت المساء والصباح معه.

ـ لتتجنبي أمي؟

ـ نعم جزئياً... لكن رغبتي في البقاء معه كانت الدافع الأساسي.

ـ أعتذر عن عدم مجيئي ليلة أمس. كنت في اجتماع عمل استمر إلى ما بعد الحادية عشرة. وعندما اتصلت قال الخادم إنك نمت منذ ساعتين، فقررت البقاء والعودة اليوم.

ـ طبعاً.

ـ هل أبلغك عن عدم عودتي؟

ـ كنت نائمة ليلة أمس كما قال لك الخادم... وأمك قالت هذا الصباح إنك لم تعد بعد.

فتنهد عميقاً:

ـ حسناً... لننسَ هذا الآن. هل ستتكلم الآن أم لاحقاً؟

أربكها سؤاله المباشر، فنسيت كل ما حضّرته من كلام حفظته عن ظهر قلب.

ـ آه... فيما بعد أظنك تفضل الراحة والاستحمام الآن.

مرر يده على مؤخرة عنقه بتعب ظاهر.

ـ سأفعل... فقد مر علي وقت عصيب ليلة أمس. فأنا لم أذق نوماً هنيئاً في الفندق.

ـ فندق؟ هل أقمت في فندق ليلة أمس؟

لم تكن تتوقع هذا... فهي اعتقدته نام في شقة تلك المرأة... إلا إذا... يا رباه... لقد خدعتها كلمات ليزا

كيندل بسهولة!

ـ أجل... ولم آوِ إلى الفراش قبل الثانية... فمثة مشكلة في إحدى شركاتي... علم بها الاتحاد العمالي، لكنه يرفض الاصغاء إلى وجهة نظري.

بعد أن كانت حمقاء أصبحت الآن فضولية لمعرفة سبب تأخره الحقيقي في لندن. فقالت له بهدوء:

ـ لكنني سأصغي إلى وجهة نظرك... أرجوك أن تخبرني.

فهز كتفيه:

ـ العمال هناك قلقون على الشركة فعندما تتمسك الاتحادات بأمر ما مثل هذا!.. لا يتركونه أبداً... وكان علي السفر إلى الشمال، حيث الشركة، هذا الصباح لاطمئنهم... تباً للازعاج!

ـ وأنا ظننتك... لا عليك مما ظننت... نستطيع التحدث متى شئت.

ـ فيما بعد قد يناسبني... لكن أين ظننتني أمضيت ليلة أمس؟

ـ في لندن بالطبع.

ـ إنما لست وحدي... هه؟

عضت على شفتها:

ـ لا.

فارتفع رأسه بتعالٍ وشموخ:

ـ لو أمضيت ليلتي في لندن مع امرأة فلن أفعل هذا في السر... لكن الواقع أن لا عشيقة لدي... لا في لندن ولا في أي مكان آخر.

ـ آسفة.

ـ هل تريدين لائحة بعلاقاتي خلال السنوات الخمس الأخيرة؟

بدا غاضباً حقاً لكنها لم تلُمه.

ـ قلت آسفة باتريك. فالخادم قال إنك عائد.

لم ترغب في توريط أمه في الموضوع لذا أردفت:

ـ لا داعي إلى الشرح عما افترضته... أعتذر باتريك، وأتمنى أن نترك الموضوع على ما هو الآن!

لن تخبره عما قالته أمه، إذ كان على تعقلها أن يمنعها من أن تستمع إلى المرأة الحقود.

ـ حسناً... هذا ما سيكون. سأذهب لرؤية فيليب ثم استحم... على أن نتحدث في مكتبي بعد العشاء.

كانت باردة، لكن مؤدبة مع المرأة العجوز خلال تناولهم العشاء... فقد استنتجت من خلال نظرة عيني ليزا كيندل المنتصرة أنها تعتبر نفسها قد سجلت نقطة انتصار عليها هذا الصباح بزرعها بذرة الشك في عقلها... ربما نجحت مبدئياً... لكن سابينا في المستقبل ستعرف كيف تحذر من سم هذه المرأة.

لكنها أحست بعيني المرأة تخرجان من محجريهما من الفضول عندما شاهدتهما ينسحبان معاً إلى المكتبة... دون أن يقدم أيّ منهما تفسيراً.

جلس باتريك خلف مكتبته، نظر إليها باهتمام:

ـ هل اتخذت قراراً؟

هذه المرة كانت مستعدة لكلامه المباشر، فردت بهدوء:

ـ أجل... اتّخذته.

لمع شيء في عينيه ثم تلاشى... تنهد وهو يقول:

ـ أفهم من هذا أن ردك «لا» فأنت ترفضين الارتباط بعقد يدوم مدى العمر.

وقف ليذرع الغرفة:

ـ عقد سيكون خالياً من الحب...

فقاطعته بصوت ناعم:

ـ لكنني لن أقول «لا» باتريك.

التفت بحدة ليواجهها وعيناه ضيقتان:

ـ لن تقولي لا؟

ـ لا.

ـ ولماذا لا؟

فابتسمت من دهشته:

ـ يمكنني القول إنك لم تسرّ كثيراً بقبولي عرض الزواج.

تخللت أصابعه في شعره الأسود:

ـ إنها إجابة لم أتوقعها...

ـ ألا تريدني زوجة؟

ـ طبعاً...

ـ ألا تعتبر نفسك مجبراً؟

ـ لم أفكر قطّ بهذه الطريقة!

ـ إذن عليك التفكير الآن... فأنا أقبل عرضك باتريك. سأتزوجك.

كانت تتكلم برباطة جأش باردة جعلته يرفرف عينيه:

ـ متى؟

فهزت كتفيها:

ـ حالما ينتهي عقد عملي... كما أظن.

تحرك ليعود إلى الجلوس وراء مكتبه ثانية:

ـ حسن جداً... سأحضّر الترتيبات كلها...

ـ لم أتمّ كلامي بعد... باتريك... فأنا سأقبل عرضك مع تغييرات محددة في الترتيبات.

ظهر عليه القلق:

ـ ما هي؟

فضحكت بنعومة ثم وقفت... كانت طويلة القامة، رشيقة القوام يدثرها فستان أخضر قاتم جعل شعرها يبدو لهباً مشتعلاً ولون عينيها أزرق زمردياً.

ـ لا داعي إلى القلق باتريك. فلن أطلب منك التنازل عن ثروة العائلة لي.

ـ لكن من تمثلين دورها الشرير قد تفعل.

ـ إذا كانت تزعجك، اطمئنك أن دورها انتهى. أول ما سأفعله هو ترك التمثيل بعد الموسم وقد وافق المنتج على حذف الدور.

ـ ستتخلين عن عملك؟

ـ أجل. على الأقل في الوقت الحاضر. ففيليب بحاجة إلى أم دائمة، وهذا تغيير آخر.

ارتد باتريك بكرسيه أمام نظرتها المتحدية:

ـ نعم... وماذا سواه؟

ـ أريد العناية بالطفل بنفسي، ولا أرغب في مربية... فالسيدة بريد ستغادر قريباً، وأنا أعرف كيف أعتني بفيليب.

فقال بلطف:

ـ لا أشك في هذا... كل ما في الأمر أن العناية بطفل مسؤولية جسيمة... إنه عمل يحتاج إلى الانتباه أربعة وعشرين ساعة.

ـ وهذا ما سأحبه. سأعقد صفقة معك باتريك... بعد شهر، إذا ظننت أنني مقصرة فاستخدم مربية... كيف تجد هذا؟

تنهد ثانية:

ـ إن الثقة المنبعثة من إصرارك تؤكد أن الصفقة من جهتي خاسرة. حسناً أنا موافق إذا كان هذا ما تريدين!

ـ صح... والآن أصل إلى آخر تغيير أريده.

ـ ثمة المزيد؟

ـ أجل... وهذا الجزء قد يكون الأكثر إحراجاً.

جالت عيناه الباردتان في وجهها... ثم قال:

ـ فهمت... تفضلين عدم إقامة علاقات زوجية.

ثم تنهد مضيفاً:

ـ أشك في أن الزواج سينجح دون هذه العلاقة... لكن...

ـ باتريك... لقد فهمت الأمر خطأ... فدعك من القفز إلى استنتاجات لا وجود لها.

ـ آسف!

فابتسمت:

ـ ها أنا أجادلك مرة أخرى؟

ـ أجل.

ـ لم أقصد الجدل للجدل. أردتك أن تصغي فقط إلي. أريدك باتريك... وأريدك بشكل يائس... لم أفكر في شخص آخر سواك منذ سافرت. أريد أن أكون زوجتك يا باتريك، لكن ليس كما تريد أنت، بعض الوقت بل كل الوقت. أريدك أن تشاركني غرفتي نفسها لا أن تقوم برحلات عبر الممر، أو عبر باب مشترك... فلو فعلت هذا كلما أردت لاهترأت السجادة بين غرفتينا!

ابتسمت على دعابتها... فتنحنح:

ـ أنا... أنت...

فضحكت:

ـ لقد أحرجتك... أليس كذلك؟ أنا لم أقصد هذا أيضاً. لكنني لم أحس بمثل ما أحس به من قبل... فأنا لم أرغب في رجل كما أرغب فيك لذا أريد أن أكون صريحة بشأن هذا الأمر.

ـ لست محرجاً... ربما دهشاً قليلاً... هل شاهدت طوني خلال وجودك في أمريكا؟

ـ أجل.

ـ ولم يغير ذلك رغبتك فيّ؟

ـ لا.

استدار عنها ينظر إلى نار المدفأة:

ـ إن كنا سنكون صادقين، فعليّ أن أقول إنني أحس بالرغبة نفسها... فقد حاولت أيضاً أن أدفعها إلى زوايا النسيان في الأيام الأخيرة، لكنني لم استطع. ما أحاول قوله إنني أشاركك الرغبة، وانني أحب أن أحمي تلك السجادة في مطلق الأحوال.

حاول بكلامه أن يريح الجو المكهرب بينهما، لكنه لم ينجح. فالتكهرب ولّد شرارة نار بينهما... فناداها متأوهاً:

- سابينا...!

دخلت بين ذراعيه بكل إرادتها... تتلقى ظمأه وجوعه إليها بظمأ وجوع مماثل. فضمته ولمسته بحرارة كما كان يفعل بها. فقال لها متأوهاً:

- أتأتين معي إلى غرفتي الآن؟ فأنا بأمسّ الحاجة إليك.

أرادت هذا... فليس هناك ما هو أفضل من قضاء الساعات بين ذراعيه... لكنها تراجعت عن ذلك الالتزام النهائي... إذ تريد أن تكون ليلة عرسها الليلة الأولى التي تتعرف فيها إلى حبه.

أحس بترددها فتراجع، واحمرار الرغبة على وجهه:

- لا؟... هل أنت كبقية النساء؟ لقد اعترفت برغبتك واجتذبت اعترافاً مماثلاً مني... لكنك لن تتمكني من السيطرة علي برغبتي فيك سابينا. ما من جسد امرأة يستحق أن يفقد الرجل احترام نفسه لأجله أو سيطرته على نفسه.

دفعها بعيداً عنه... كان يتحدث بمرارة داخلية سببت لسابينا الألم... هل يتكلم عن تجربة شخصية؟... الآن عرفت سبب انطوائه والعزلة وتحفظه! لا بد أن هناك امرأة في ماضيه استخدمت جسدها لابتزازه! الزمن وحده سيظهر له أنها ليست هكذا.

سمعته يقول ببرود، وقد ابتعد عنها:

- أقبل بشروطك سابينا. سأبلغ والدتي بزواجنا في الصباح.

مدت له يدها، لكنه تجاهلها:

- لدي بعض الأعمال حالياً.

- سأتحرّر من كل التزام في أميركا بعد أسبوعين... وأنا...

- هل يشمل هذا طوني؟

- طبعاً... فأنا سأكون زوجة وفية باتريك. أما أنت فلك أن تفعل ما تشاء.

كانت يداه قاسيتين على ذراعيها وهو يديرها نحوه قائلاً بشراسة:

- سأكون وفياً لك حتى تتعبي في النهاية من كونك زوجة وأماً، فتبدئين في التفتيش عن تسلية أخرى.

رفعت سابينا رأسها بكبرياء. وقالت بلهجة لاذعة:

- لا أعتقد أن هذا سيحدث.

- سنرى!

- متأكدة أننا سنرى. سأتركك الآن إذا كان لديك عمل، وسأسافر بعد ظهر الغد... أعتقد أن أمك ستصاب بالإحباط عندما تعرف أنني عائدة لأعيش هنا هذه المرة.

- واثق مئة بالمئة أنها ستصاب بالجنون عندما أبلغها.

- لا تبدو مكترثاً.

فقال بعجرفة:

- اختيار عروسي، لا شأن لأحد فيه، إنه شأني الخاص. وسأتزوجك بعد أسبوعين من الآن، مهما قالت.

- أي حالما أعود؟

- وهل لديك مانع؟

ـ أبداً. . . فوالدي لن يستطيع السفر في أي وقت قد نتزوج فيه.

ـ نتزوج في بلدك إن شئت.

ـ أو تفعل هذا؟

ـ إذا كانت هذه رغبتك.

ـ لكن فيليب. . .

ـ لن يكون في شهر العسل. . . ستبقى السيدة بريد لتعتني به إلى ان نعود.

ـ وهل نحن ذاهبان في شهر عسل؟

ـ هذه هي التقاليد. . . قد فكرت بجزيرة في الكاريبي، نزور في طريقنا إليها أهلك. أتفضلين هذه الفكرة؟

سيتضاعف كره ليزا كيندل لأنها ستحرمها من متعة زواج ابنها الأكبر في بلاده. فقالت:

ـ أظنها أفضل من الأولى.

ـ حسن جداً.

لم تكن برودة أساريره مشجعة، لكنها تقدمت منه فوقفت على أطراف أصابع قدميها وقبلته على خديه، متمتمة:

ـ تصبح على خير باتريك. . . سأجعلك سعيداً.

لم يرد. . . بل اتجه ليجلس على كرسيه، ففتح حقيبته وكأنه ينهي به هذا الحديث.

ما حدث قد حدث الآن. فقد وعدته. . . ربما بعد عشرين سنة. . . عندما تبقى لمسته تُذيبها وعندما يرى أنها لا تطلب منه شيئاً لا يريد أن يعطيه. . . سيصدق أنه وحده، ووحده فقط، من ترغب فيه.

لم تكن سابينا قد خرجت من سريرها بعد عندما عصفت ليزا كيندل إلى داخل الغرفة. . . ففضلت بحكمة أن تبعد فنجان القهوة من يدها لئلا تدلقه عليها المرأة في فورة غضبها! رأت أنّ لا حاجة لأن يخبرها أحد أن باتريك أخبر أمه عن زواجهما!

ـ إذن أنت أكثر خبثاً مما ظننتك وتستحقين تقديراً عليه!

ـ أعتقد أنك لست سعيدة بالزواج؟

ـ سعيدة؟ من الواضح أن الزواج سيكون من أجل فيليب. فقد كان ولدي غبياً عندما فكر في اقتراح الصحافة. . . وأنا سوف. . .

فقاطعتها سابينا بحدة:

ـ لا غباء فيما يفعله باتريك سيدة كيندل! سأُنجح هذا الزواج.

ـ أنت لا تحبين ابني. . .

لمعت عينا سابينا وهي تقاطعها مجدداً:

ـ أنا أهتم به. . . وهذا له أهمية الحب نفسه. . . باتريك رجل عظيم. . . وسأكون فخورة به زوجاً.

ـ لن يحدث هذا ولو على جثتي!

فالتوى فم سابينا بسخرية:

ـ لا بأس. . . إذا كان هذا ضرورياً.

ـ لن أقبل بك عضواً في عائلتي. . .

ـ ولست شديدة السرور لأنك أنت أحد أفرادها.

بدأت سابينا ترد الإهانة بالإهانة. . .

ـ لكن ليس لدي خيار آخر بالنسبة لأقرباء زوجي. . . والآن لو سمحت. . . أريد أن أرتدي ملابسي.

ـ لكنني لن أسمح. لن أقبلك أبداً زوجة لباتريك.
ـ لا يهمني قبولك أو عدمه أبداً.
فاستشاطت العجوز غضباً وأخذت تصيح:
ـ ستندمين على هذا سابينا!
ـ لا أظن.
ـ لن تكوني أسعد مما كانت عليه كيم!
ـ اوه... لكنني سأجد السعادة. أترين، أنا أعلم منذ البداية مدى حبك وشغفك للتدمير فأنت لا تكذبين لتحقيق أهدافك.
ـ أتتحدثين عن الليلة التي قضاها باتريك في لندن؟
ـ تعرفين هذا. ولن أقع في فخ أكاذيبك بعد الآن. لأنه كان يعمل وكنت تعرفين هذا جيداً.
ـ صحيح؟
ـ أجل!
ـ هل قال لك انه كان يعمل؟
ـ صحيح... وأنا أميل إلى تصديقه أكثر منك.
ـ إذن أنت غبية!
ـ لا... بل أنا أثق بالرجل الذي سيصبح زوجي.
احمر وجه ليزا كثيراً من الغضب وأصبحت في حال يرثى لها:
ـ كلاكما مجنون! ولن ينجح زواجكما.
ـ لكنه سينجح!
ـ سأذكرك بهذا عندما تفقدين صبرك فترحلين.
ردت سابينا بصوت ناعم ساخر وهي تغادر الغرفة:

ـ هذا لن يحدث أبداً.
لم يكن الشجار اسوأ مما توقعته... كانت تظن أن العجوز سترمي بتعليقات بذيئة ضد كيم كذلك... وما من شك في أنها ستفتعل مشاكل عديدة لتخلفها مع باتريك، لكنها ستتجاهلها وستتجاهل المُفتعِلة.
ـ لماذا لم تخبريني؟
التفتت بذعر فرأت باتريك، وسرعان ما أحست بشفافية ثوب نومها. وذلك يؤكد أنه يشاهد الآن كل حنايا جسدها.
دون استعجال وضعت الروب فوق ثيابها:
ـ أخبرك بماذا؟
ـ بشأن كذب والدتي حتى تعثّر علاقتنا.
فهزت كتفيها:
ـ لم اشأ افتعال خصام غير ضروري بينك وبينها.
ـ غير ضروري؟ والدتي حقود تحبّ الانتقام. إن أعادت الكرة ثانية أخبريني فوراً!
ـ أجل باتريك.
وابتسم:
ـ ولا تحاولي الاستمرار في التمثيل عليّ... فبعد ما سمعت ما قلته لأمي لن أصدقك.
ـ وكم منه سمعت؟
ـ كل الحديث... كنت آتياً لأودعك عندما شاهدت أمي تدخل غرفتك... وبعد سماع أول دفاع عني لم استطع منع نفسي عن التنصت... بدوت واثقة جداً من أن زواجنا سينجح يا سابينا.

في الأسبوع الأول بقيت مشغولة جداً في التصوير. فتصوير المسلسل لهذا الموسم يكاد ينتهي، والجميع يعمل بسرعة. وفي نهاية هذا الأسبوع قصدت والديها لتعلمهما بقرار زواجها.

قطب والدها قائلاً:

ـ لكنك لا تكادين تعرفين الرجل. فكيف ستتزوجينه؟

ـ هذا ما أريده.

ـ أبسبب فيل؟ لن أسمح بالتضحية بنفسك، من أجل أي شيء وإن كان حفيدي.

ـ لا أنكر أنني جزئياً أتزوجه من أجله... لكن بشكل أساسي أتزوجه لأنني أنا أريده.

ـ هل تحبينه؟

ـ أنا...

فقاطعتها أمها بصوت هادىء:

ـ هل تحبينه سابينا؟

وطال صمتها تفكر ما هو الحب وماذا يعني، فأعادت أمها السؤال:

ـ سابينا؟

فابتلعت ريقها وقد اكتشفت اكتشافاً هاماً... لا تريده فقط جسدياً بل تريده كما تريد العاشقة المحبة الرجل الذي تحب... أجابت بثقة:

ـ أجل... أجل أنا أحبه.

عندما شاهدته ينتظرها في المطار بعد أسبوع. لم تستطع كبح مشاعرها... فركضت ترمي نفسها بين ذراعيه، رافعة

فتحركت إلى ذراعيه:

ـ أنا واثقة... فكل ما نحتاجه هو الصراحة التامة بيننا.

فربت خدها:

ـ وهذا يشمل إخباري بما تفعله عائلتي بك. أنا لا أشك في أن روزي ستؤازر وتعاضد والدتها... وستحاول كذلك طعنك بخناجر من لسانها السليط.

ـ لن يهمني. كل ما أريده... أنت... وفيليب.

ـ الترتيب نفسه دائماً؟

ـ هذا ما لا استطيع اختياره. فأنا أعتبره ولدي... وأنت والده. وما من امرأة تستطيع الاختيار بين ابنها وزوجها.

هز رأسه متمتماً:

ـ لقد أعجبت بصراحتك المباشرة منذ البداية... لكن عندما تمسني هذه الصراحة تتوتر أعصابي.

ـ ستعتادها تدريجياً.

ـ أشك في هذا... والآن وداعاً... عليّ الذهاب... سأعود بعد الظهر لأصطحبك إلى المطار.

ـ لا حاجة لهذا.

ـ إنه يعجبني.

فضحكت:

ـ بدأت أشعر أنني لا أحب الوداع. لكنني أفضل أن تستقبلني أنت عندما أعود، هذا إذا تسنّى لك الوقت.

ـ سأخلق الوقت... هل أنت متأكدة أنك لن تحتاجي إلى من يوصلك بعد الظهر إلى المطار؟

ـ بالتأكيد.

خدها إليه ليقبلها.

ـ اوه... كم اشتقت إليك.

ـ أنا... فيليب كان ينتظرك على أحر من الجمر.

تعلم أنها لن تستطيع توقع الكثير منه في وقت قريب فابتسمت:

ـ هذا رائع!... عانقني باتريك.

ـ هنا؟

ونظر حولهما قلقاً.

ـ أجل هنا!

ثم بتنهيدة مخنوقة احتضنها ليقبلها... ويقبلها... وكان لا يريد التوقف عن عناقها أبداً.

● ● ●

فراشة المحبة

٦ ـ عذراء الجزيرة ـ

ثلاثة أيام... بعد ثلاثة أيام ويصبحان زوجاً وزوجة... وهذا ما لم تفكر فيه منذ شهر. لكن كيم كانت حية قبل شهر من الآن.

كانت مشغولة جداً في الأسبوعين الأخيرين، حتى أن حادثة تحطم الطائرة تراجعت إلى زوايا تفكيرها... لكنها الآن عادت بعنف... مما جعلها تحس بالضعف والارتجاف.

سألها باتريك وهما في غرفة الجلوس، بعد أن لاحظ شحوبها:

ـ ما الأمر سابينا؟ هل غيرت رأيك بشأن الزواج؟

ـ لا... لكنني تذكرت كيم فلولا موتها...

ـ لا تفكري بهذه الطريقة... إنك دون ريب تعبة... فاستريحي الآن... وسنتحدث فيما بعد... كنت أريد الخروج معك للعشاء... لكن...

ـ اوه... كنت سأحب فكرتك... لكن يجب أن أستلقي حتى استعدّ بعدها للخروج.

فرد باتريك بنعومة:

ـ ستقضي أمي بضعة أيام عند ابنتها... ولقد أعلمت كل الخدم بأمر زواجنا... ظننت أن هذا أفضل.

ـ صح... خاصة بعد انتقالي إلى غرفتك.
ـ لكنك لن تنتقلي.
ـ باتريك...
ـ ستتحدث عن هذا فيما بعد...

بعد أن أمضت قليلاً من الوقت مع فيليب، تمكنت سابينا من الاغفاء في غرفتها مدة ساعتين، مع أن قول باتريك بأنها لن تشاركه الغرفة أزعجها. لقد ظنت أنهم سويا هذا الأمر قبل عودتها إلى أميركا... حسناً، مهما كان قد اتخذ من قرار في غيابها، فلن تقبل به لأنها لن ترضى بزواج غير مثمر، فهي تريد لفيليب أخوة وأخوات... وغلبها النوم وهذه الفكرة في ذهنها، فعلت شفتيها ابتسامة وكأنها تتصور نفسها تحمل طفل باتريك بين ذراعيها.

ذلك المساء، ارتدت ملابسها بعناية، فشاهدت الاعجاب يقفز من عيني باتريك عندما انضمت إليه في غرفة الجلوس ثانية. تقدم نحوها وأمسك بيدها.

ـ تبدين رائعة الجمال! لدي شيء لك.
ـ لي أنا؟

فابتسم لردها المتحمس:

ـ أجل.

دس يده في جيب سترته فأخرج علبة صغيرة فتحها ليكشف عن خاتم ذهبي أنيق تتوسطه الماسة رائعة ضمن دائرة من الزمرد.

ـ خاتم الخطوبة... إذا أعجبك... وإذا لم يعجبك...
ـ طبعاً يعجبني... أنت اخترته، وبالطبع سأحبه، إنه

جميل! ضعه في اصبعي.

كان واسعاً قليلاً لكن لا إلى درجة السقوط من اصبعها.

ـ سأرسله ليصغّر وذلك أثناء شهر العسل.
ـ أوه... ليس الأمر مهماً!
ـ أتريدين خسارته؟
ـ حسناً... لكنه سيبقى في يدي إلى أن تضع لي خاتم زواج مكانه. وأريده من الذهب فقط.

ضحك وهو يفتح باب السيارة لها:

ـ عندما لا تفقدين أعصابك تبدين مرتبكة.
ـ لكنني لا أخطب كل يوم سيد كيندل!
ـ صدقي أو لا... وأنا كذلك.

قاد السيارة ببراعته المعهودة. فتابعت اسئلتها:

ـ ألم تخطب من قبل؟
ـ لا.
ـ وما تزوجت؟
ـ لا.
ـ لم أكن أعرف هذا... فتملكني الفضول.
ـ حسناً لا تكوني فضولية، فأنا لم أخطب، لم أتزوج، ولم أنخرط في علاقة جدية فترة طويلة.
ـ ولا أنا.
ـ صحيح؟

نظرت إليه بحدة فتساؤله لم يُرقها.

ـ لن أجادلك الليلة باتريك... ليس بعد خطوبتنا مباشرة
ـ ولماذا قد ترغبين في مناقشتي؟

ـ لأنني أظنك أهنتني.

ـ أنا؟

ـ أجل أهنتني... لكنك سترى يا باتريك... أنك مخطىء في ظنك بي... مخطىء!

فتنهد عميقاً:

ـ هل أنا مخطىء؟ أشك في هذا. لكن كما قلت، فلنبتعد عن الجدال الليلة. وأرجو أن يعجبك المطعم الذي اخترته.

ـ أنا واثقة أنه سيعجبني!

ـ لا تغضبي مني سابينا، إن ما تواجهينه هو خمسة وثلاثين عاماً من الشكوك والسخرية.

فلمعت عيناها تحدياً:

ـ وأمامك ستة وعشرون سنة من الاستقلال والصدق والشرف، ستتعامل معها!

فلمس خدها بنعومة:

ـ سأنجح!

ـ وكذلك أنا!

كان المطعم مزدحماً، لكن سرعان ما قادهما خادم إلى أفضل طاولة في المكان... طاولة منعزلة في إحدى زوايا المطعم... كان طراز المطعم قديماً كأنه نُزل ريفي قديم لكن الخدمة كانت حميمة وودودة والإضاءة خافتة.

بعد جلوسهما قالت:

ـ يعجبني المكان.

ـ هذا ما رجوته. لِمَ التوتر؟

ـ لأنني حساسة. ولا أقصد فقد أعصابي...

ـ ماذا فعلت بي سابينا بيرنت؟ أنا لم أشارك قط بمثل هذا الحديث.

ـ لكنك لم تكن على وشك الزواج من قبل... قلت اليوم إنني لن أشاركك غرفتك.

فهز رأسه:

ـ بل قلت إنك لن تنتقلي إلى غرفتي في هذا المنزل... لقد فكرت في الانتقال إلى منزل خاص بنا.

ـ منزل خاص؟ اتعني أن تشتريه لنا؟

ـ طبعاً.

ـ لنا نحن الثلاثة فقط؟

ـ نحن ومدبرة منزل وخادمة أو اثنتين. لا أظنك ستعترضين على وجود من يطبخ وينظف بينما أنت تعتنين بفيليب؟

ـ لا... لكن أمك؟

ـ لم تعجبها الفكرة.

ـ لماذا إذن...

ـ أنا لا أتزوج لأرضي أمي!

كشف بهذا عن الضغوطات الشديدة التي تعرض لها خلال أسبوع غيابها ليعدل عن الزواج منها...

ـ أذكر تماماً المشاكل التي قلت إنها واجهتك... وشراء منزل خاص بنا سيحل مشكلتين منها. أولاها ألا تواجهي أمي كثيراً وثانيها لا تعيشي معها في منزل واحد. لقد اخترت أن نبقى جميعاً هنا معاً في انكلترا، فهذا أقل ما أقدمه لك... لكن ثمة مشكلة لا أقدر على حلها.

إنه يعني أنهما لا يحبان بعضهما بعضاً! بلى... إنها تحبه!

وستفعل المستحيل ليُحبها.

ـ أخبرني المزيد عن شراء منزل.

ـ أعجبتك الفكرة؟

ـ بل أحببتها! لكن على أن لا يكون بعيداً عن أمك... حتى تستطيع زيارة فيليب عندما ترغب.

ـ يا لنبل أخلاقك!

ـ إنها جدته.

تناولا وجبة ممتعة معاً. وكان قد مضى وقت طويل منذ أن تمتعت بوجبة كهذه بل ربما لم تتمتع قطّ بمثلها، لأنها لم تكن واقعة في الحب من قبل.

ما إن عادا إلى المنزل حتى سألها:

ـ أتتناولين شيئاً يساعدك على النوم؟

كان المنزل كله صامتاً فقد آوى كل الخدم إلى مخادعهم... ويبدو أنّ لا وجود لليزا كيندل الليلة لتنتظر وصولهما... وهذا ما جعلها سعيدة...

لحقت به إلى غرفة الجلوس حيث تركت النار مشتعلة حتى عودتهما، فأمسيات أيلول بدأت تبرد.

ـ أمضيت ليلة سعيدة يا باتريك.

ـ وأنا كذلك.

بدا وكأنه أُجبر على هذا الاعتراف فأردف:

ـ علينا أن نسهر في الخارج دائماً بعد الزواج... ولا أظنك ستعترضين على ترك فيليب في عهدة مدبرة المنزل، في بعض الأمسيات؟

ـ أبداً... فعندها سأكون زوجتك، لا أماً لفيليب فقط.

هل ستتبناه ابناً لنا باتريك؟

ـ هذا ما أفكر فيه.

ـ أظن أنه عندما يكبر ونخبره الحقيقة عن والديه سيقرّ أننا فعلنا المستحيل لنحتفظ به دون أن يكون عبئاً علينا، خاصة بعد أن يصبح له أخوة وأخوات.

رد بصوت منخفض:

ـ أخوة وأخوات!

ـ أجل... طالما حلمت بعائلة... وأنا وكيم...

بدا الحزن على وجهها وهي صامتة، فالتفت ذراعه حول كتفيها:

ـ لا بأس عليك... فأنا كذلك ما زلت أشعر بألم فقدهما.

فدفنت رأسها في صدره.

ـ آسفة... لم اشأ إفساد أمسيتنا.

ـ لم تفسديها... أنت امرأة محبة دافئة تهتمين بالناس، وأظن أن فكرة العائلة رائعة. على كل الأحوال، لي فيها حتى الآن أفضل قسم.

ـ أتظن هذا؟

ـ بل أكيد.

ضمها إليه بحنان وتمتم هامساً:

ـ ليس في المنزل غيرنا سابينا.

فتصلبت... وعاد إليها اتزانها فتأثير السهرة والعواطف زالا تماماً... تحركت مبتعدة عنه وهي تضحك:

ـ لسنا وحدنا تماماً... فهناك الخدم...

ـ إنهم في جناحهم الخاص.

ـ لكننا سنتزوج بعد ثلاثة أيام. باتريك... وأنا تعبة الليلة.
فالتوى فمه ساخراً وابتعد عنها:
ـ لقد استخدمت هذا العذر من قبل. ماذا سيحدث فيما بعد؟ هل ستتذرعين بالصداع؟
ـ أظنك تهينني...
ـ صدقيني... لقد سبق وقلت لك إنك لن تستطيعي السيطرة علي عن طريق الجاذبية الجسدية التي أحس بها نحوك.
ـ لكنني لست...
فأمرها بخشونة:
ـ اذهبي إلى النوم سابينا. قلت إنك تعبة... فاذهبي.
ـ باتريك!
ـ اذهبي!
ـ وهل سنذهب غداً للتفتيش عن منزل؟
ـ إذا أردت هذا.
ـ أريده... باتريك؟
لم يلتفت:
ـ نعم.
فتنهدت:
ـ ليتني أستطيع التفسير لك... لكنك ستفهم سبب ترددي فيما بعد.
ـ أنا أفهمه... كلما أبقيت الرجل منتظراً جسدك رغب فيك أكثر... هذا هو منطق النساء!
كان اختيار المنزل سهلاً جداً في الصباح التالي... فلباتريك ذوق ممتاز، ولهما أيضاً ذوق مشترك فاختيار المنزل

ذو الستة غرف الملكي الطراز، كان اختياراً مشتركاً.
أحبت سابينا المنزل لأنه أقرب إلى الريف من منزل العائلة. فيه أسطبل وعدة جياد... والجياد أحبتها منذ الطفولة... أمّا الحديقة فكانت كبيرة ستحب الاعتناء بها بنفسها، بمساعدة فيليب عندما يكبر... وفيها بركة سباحة عائلية صغيرة خلف المنزل.
قالت بإثارة وهما عائدان إلى المنزل بعد توقيع المعاملات القانونية للشراء:
ـ سأعلم فيليب السباحة.
كان منذ الصباح بارداً تجاهها... لكن مع تقدم النهار بدأ يتغير وها هو يرمقها مبتسماً الآن:
ـ لا يمكنه التركيز بعد. أعطه فرصة مع كل هذه النشاطات التي تنوين القيام بها... الركوب... العناية بالحديقة... وبفيليب، تعليمه السباحة.. كيف ستجدين الوقت اللازم لمزاولة مهنتك.
ـ سأنتظر حتى ذهابه إلى المدرسة.
ـ لكن الجمهور عندها سينساك.
ـ ربما عندها سيكون لدي أولاد آخرون أهتم بهم.
لا أدفعك إلى العمل. لكنني لا أحب أن أكون ثاني اهتماماتك ولا تعجبني كثيراً فكرة خروج زوجتي للعمل. لو كانت ظروفنا عادية لمنعتك عن العمل... لكنك تتزوجينني بسبب فيليب... بسبب إحساسك بالمسؤولية نحوه.
فردت متحدية:
ـ ولأنني أريدك كذلك.

ـ أرجو أن تسامحيني إن شككت فيه... فلا برهان لدي على هذا مؤخراً. معظم النساء يجدن العلاقة الجسدية مثيرة للاهتمام إلى أن يضعن الخاتم في اصبعهن ثم لا يعدو أن يصبح ذلك لهن مثل عقد الصفقات.

ـ أنت شديد السخرية.

ـ تعلمت أن أكون ساخراً والرجال يتعلمون مع الوقت.

عادت ليزا كيندل إلى المنزل صباح يوم الزفاف... مدعية بتعال أنه بعد إصرار باتريك على هذا الزواج السخيف لم يعد أمامها إلا تقديم دعمها المعنوي. فما كان من سابينا إلا أن ابتسمت لأن باتريك لا يحتاج إلى دعم أحد، خاصة دعم أمه!

دخلت روزي فريستون غرفة سابينا وهي ترتدي ثوب زفافها:

ـ أبيض اللون؟

فنظرت سابينا إليها غاضبة من سخريتها وردت بكبرياء:

ـ يحق لبعض النساء ارتداء الأبيض.

ـ أعلم... كان لي الحق.

ـ وأنا كذلك.

ـ أشك في هذا. ويجب أن أقول إنني دهشة من غباء باتريك. كنت أظنه دوماً عاقلاً. ولماذا تريدين السكن في منزل وحدك؟ هذا المنزل كبير يكفي عشر عائلات!

نظرت إليها سابينا بعينين خضراوين قاسيتين:

ـ أنا وباتريك... لن نرتكب غلطة تشارلز وكيم... لماذا لا تنتقلين وزوجك إليه؟

ـ لأن أمي ستأكله حياً.

فالتوى فم سابينا ساخرة:

ـ أشك كثيراً في أن يكون لها التأثير نفسه... لكنني ستغني عن تعليقاته اليومية الشريرة.

ـ هل تحبان بعضكما؟

ـ هذا ليس من شأنك اللعين!

ـ لقد شاهدته ينظر إليك... وهذا ما يفسر جنونه.

ـ لكن باتريك لا يعتقده جنوناً.

ـ ولا أظنك أنت كذلك تعتقدينه... فرأسمالك في عملك جسدك وجمالك، وهو لن يدوم طويلاً... لكن الزواج من رجل ثري يعني أنك لن تخسري أبداً، فإذا استمر الزواج ستعيشين عيشة فاخرة... وإذا فشل تحصلين على تسوية مالية ضخمة... أنت ذكية ككيم... بل ربما أدهى.

راحت يد سابينا تتحرك من تلقاء نفسها، تطير ببطء في دائرة حتى تصطدم بقوة بوجه روزي فريستون التي شهقت وارتفعت يدها إلى موضع الصفعة الأحمر ثم حدقت فيها بذهولة وقد أطلت الكراهية من عينيها والتوى فمها بعنف، ورمت بالكلمات:

ـ ستندمين على هذا سابينا!

اضطربت سابينا لفقدانها أعصابها، لكنها رفضت أن تترك روزي فريستون تلاحظ هذا. فردت بهدوء:

ـ لا أظن هذا!

لن تسمح بأن تهان كيم في زفافها هي!

هبطت يد روزي عن وجهها إلى جنبها... فقالت بغضب:

ـ لكنك ستندمين... وهذا ما سأتأكد منه!

ارتدت على عقبيها وخرجت عاصفة من الغرفة.

لم تعد سابينا قادرة على السيطرة على ارتجافها. فجلست على حافة السرير... تتنفس بعمق... لولا حبها البائس لباتريك لدفعتها كراهية عائلته إلى الهرب بعيداً... مع فيليب أو بدونه... خاصة بعد أن جعلت من روزي فريستون أكثر من عدوة اليوم... وهذا يعني أن عليها مراقبتها عن كثب.

لكن لم يكن هناك دليل على عدائية تلك المرأة أثناء ذهابهم إلى مكان عقد الزواج. بل الواقع أن تصرفها السعيد كان بادياً أكثر من كراهيتها التي اظهرتها... وهذا ما يدعو للقلق.

لم يكن هناك ضيوف كثيرون أثناء عقد الزواج... لكن في حفلة الاستقبال التي جرت في المنزل فيما بعد، كان الأمر مختلفاً... فقد اعتبرت ليزا كيندل أن من واجبها دعوة أقارب واصدقاء العائلة إلى حفلة زفاف ابنها الأكبر، حتى وإن كانت ترفض العروس.

كان العروسان ينويان قضاء الليلة الأولى في لندن، على أن يستقلا الطائرة إلى أميركا في اليوم التالي... ليقضيا ليلة عند أهلها قبل السفر إلى الكاريبي حيث سيقضيان شهر العسل في جزيرة باربادوست ثلاثة أسابيع... ولم تكن سابينا تطيق الانتظار حتى يصبحا وحدهما.

وكأنه أحس بما تفكر فيه فسألها:

ـ ماذا جرى مع روزي؟ لقد خرجت من غرفتك وكأنها قد ضُربت.

فاعترفت سابينا ببساطة:

ـ أنا ضربتها. أهانتني فضربتها.

ـ ألا تعرفين أن على الزوجات ترك أزواجهن يدافعون عنهن؟

لم يظهر اكتراثاً أو اهتماماً لأنها ضربت أخته... فابتسمت ارتياحاً:

ـ لم تكن زوجي وقتذاك.

ـ لكنني زوجك الآن... فإن تعرضت إلى إهانات أخرى... أخبريني وسأتعامل أنا معهما بطريقتي الخاصة.

لم يكن لديها شك في هذا... لكن... بما أنها دائماً مستقلة تجد من الغريب التفكير في أن هناك من تعتمد عليه، كمن يساعدها على خوض معاركها. لكن الأمر الآن ذو اتجاهين، فعليها كذلك أن تساعده في كل شيء.

كانت حتى حان وقت مغادرتهما بعد الثامنة، تحس بصداع رهيب، فقد التقت بالعديد من أقاربه، وتبادلت التعليقات اللاذعة مع ليزا كيندل في أحاديث عديدة مزدوجة الحد، حتى باتت لا تستطيع التفكير السويّ. وطوال الوقت كانت تحس بنظرات روزي فريستون الشرسة نحوها، وكأنها تعرف شيئاً لا تعرفه سابينا، لكنها غير مستعدة بعد لافشائه... مازاد الأمر سوءاً وداع فيليب والتفكير في الابتعاد عنه ثلاثة أسابيع.

لكنها لم تذكر صداعها أمام باتريك. متذكرة بوضوح سخريته من اختراعها الصداع بعد الزواج للتهرب منه. لكنه سألها وهي ملقية رأسها لتريحه على مؤخرة مقعد السيارة:

ـ تعبة؟

ـ قليلاً.

فأمسك بيدها:

ـ نتناول العشاء في جناحنا إذا أحببت.

الطعام!... يا إلهي... التفكير بالطعام جعلها تصاب بالغثيان... لكنها اضطرت للرد بضعف:

ـ أنا... عظيم.

ثم اغمضت عينيها لتريح ألم رأسها مدعية النوم... ولم تدر متى تحول الادعاء إلى حقيقة. لكنها فجأة أحست بباتريك يهزها بلطف ليوقظها، ويقول بلطف:

ـ وصلنا الفندق. هل أنت أحسن حالاً؟ أذهب الصداع؟

فجلست سابينا، متسعة العينين:

ـ أكنت تعلم؟

ـ كنت شاحبة، وكان الضوء يزعج عينيك فعلمت بصداعك. لا تخافي مني سابينا.

ـ لست خائفة... لكنني لم أكن أرغب في المزيد من الاتهامات ولقد زال الصداع الآن...

فلمس ذقنها بنعومة:

ـ تلك الأمسية كنت أعاني من ذلك المرض الرجولي المشترك. خيبة الأمل. وإذا كان رأسك يؤلمك حقاً فالخير لك أن تنامي باكراً... وحدك!

جعلتها رقته، وتفكيره السليم، بعد توتر اليوم، تبكي. فقالت مختنقة:

ـ لقد زال الصداع حقاً باتريك.

ـ ألا تفضلين النوم باكراً وحدك؟

فابتسمت:

ـ ليس لدي اعتراض على النوم باكراً... لكن على النوم وحدي لدي ألف اعتراض.

خرج من السيارة ضاحكاً فتقدم منه بواب الفندق يفتح باب سابينا.

ـ سنبحث هذا بعد العشاء.

كان لباتريك القدرة والعظمة للحصول على أفضل الخدمات أينما ذهب. فبعد خمس دقائق من دخوله الفندق، كانا وحقائبهما في الطابق الأعلى في جناح العرائس الفخم.

كان العشاء مرحاً وخفيفاً... لكن سابينا لم تكن تحس بما كانت تأكل. فقد كانت تتمتع بصحبة باتريك أكثر من تمتعها بالطعام.

عندما شبعا جلسا في غرفة الاستراحة الملحقة بغرفة نومهما فقال بخبث:

ـ والآن ماذا عن النوم المبكر.

ـ مبكر؟ إنها الحادية عشرة.

ـ إنها ساعة مبكرة في لندن.

ـ عليّ أن استحم!

ـ طبعاً... وأنا سأستخدم الحمام الآخر.

تريثت في الحمام ثم لما خرجت رشت جسدها كله بالعطر... لكن الغلالة البيضاء الرقيقة لم تخفِ شيئاً من حنايا جسدها.

ظنت بعد دخولها غرفة النوم أن باتريك ما يزال في الحمام، لكنها بعد قليل، وفي الاضاءة الخافتة، لاحظت حركة قرب النافذة. فدنت منه لتتأمل آلاف الأنوار المتلألئة في الجزء

الظاهر لهما من المدينة.

التفت إليها ما أن شعر بوجودها، فعلقت أنفاسه في حلقه لمرآها الخلاب ونظرت سابينا إليه بعينين خضراوين لا تعرفان الخوف... لكنها بللت شفتيها بطرف لسانها... فثمة ما عليها قوله قبل الزواج.

ـ هل لاحظت أنني ارتديت الأبيض اليوم يا باتريك؟

فهز رأسه، وضاقت عيناه:

ـ أجل... لاحظت هذا.

ـ أنا... لقد ارتديته لسبب محدد.

ـ ما هو؟

سارعت لتتكلم قبل أن تفقد شجاعتها. فسخريته تجعل كلامها صعباً.

ـ عندما كنت وكيم صغيرتين... كنا نتحدث كثيراً عن زواجنا. وقطعنا وعداً... وعداً حافظنا عليه.

احست بباتريك يتوتر:

ـ نعم؟

ـ باتريك... أريدك أن تعلم أن عروسك... عذراء.

فضاقت عيناه واشتدت يداه على ذراعيها حتى آلمتها:

ـ عذراء؟

ـ نعم... والعذارى نادرات في أميركا كما تعلم!

ـ لا تمزحي سابينا... فالأمر جدي. فهل تقولين الحقيقة؟

فسخرت منه بمرارة:

ـ ممثلة عابثة لا أخلاق لها؟ لكنني أخشى أنك مخطىء فأنا أقول الحقيقة.

فتركها... ثم سحب نفساً عميقاً أعقبه بزفير مرتفع الصوت... ثم راح ينظر إليها وكأنه لم يرها من قبل.

ـ أَلذلك منعتني عنك في السّابق؟

ـ أجل... أصدمك اعترافي؟

كانت مشاعره تجاه الأمر، واضحة.

ـ إنها صدمة... فلمن كان يزاول مهنة كمهنتي ولمن كان في مثل عمري يعتبر الأمر مهماً! لقد اعتبرت جسدي دائماً مهماً. مع أنه من اليسير إقامة علاقة مع أي إنسان في هذا الزمان... لكنني طوال حياتي لم أحب الأمور السهلة... فما رأيك؟

نظرت إليه متحدية تنتظر ردة فعله، ثم قال بصوت أجش:

ـ أنت تعلمين ما رأيي... أنت امرأة مميزة... سابينا كيندل! بدأت من الآن اتساءل ماذا اكتسبت من زواجي منك... عذراء! وأنت من قلت إنك تزوجتني لرغبتك فيّ!

ـ أنت تجعلني أبدو وكأنني دون حياء سيد كيندل!

ـ إن كنت تريدين رأيي... فسأقوله لك في الصباح... يا إلهي سابينا. أنت بريئة ساذجة!...

ـ لا... أبداً... لست ساذجة إلى هذا الحد.

ـ شكراً لله... لا أريد لأي شيء أن يفسد ليلتنا... أقصد ليلتك الأولى.

وحملها بين ذراعيه بسهولة، فلفت ذراعيها حول عنقه وتقدم ليضعها على السرير المزدوج.

● ● ●

فراشة المحبة

٧ ـ ما زلت أريدك

استيقظت سابينا في الصباح التالي تشعر بسعادة لم تعرفها من قبل... كلاهما استيقظ في الوقت ذاته كما يبدو... وكأنهما أصبحا بعد الليلة الأولى شخص واحد، يحسان بالمشاعر نفسها وبالحب نفسه، لقد شكت كثيراً في حبه.

ـ علام تبتسمين؟

سألها باتريك بكسل وهو مستلق إلى جانبها، فاستدارت وهي بين ذراعيه:

ـ كنت أفكر فيك.

فابتسم:

ـ تعجبني الفكرة... أفكار مثيرة...

فضحكت:

ـ قطعاً!

ـ أتحبين تنفيذ ما تفكرين فيه.

ـ كنت أفكر أنني سأتغلب عليك و... و... ماذا تفعل؟

كانت يداه قد اطبقتا على خصرها بشدة، فأجاب:

ـ أضع كلماتك موضع التنفيذ.

لولا الطعام الذي أحضره السّاقي لتمَّ التنفيذ... لكن الخادم لم يلاحظ الابتسامتين السخيفتين على وجهيهما...

فدخل بعد أن فتح له باتريك ووضع الطعام على طاولة غرفة الطعام. وحياهما قبل أن يخرج.

انفجرت سابينا بعد أن خرج ضاحكة على منظر باتريك وهو يحاول جاهداً الظهور بمظهره الطبيعي أمام الخادم.

قطب باتريك وجهه وهو يسمع ضحكها:

ـ ليتني لم أستأجر جناح العرائس هذا!... إنه يوحي بكل وضوح ما كنا نفعله طوال الليل.

ـ أما كنا سنفعل الشيء نفسه في أي جناح آخر؟

ـ بالطبع... لكن...

ـ اوه... باتريك... لا يهمني ما يقوله الناس جميعاً؟

نهضت من فراشها فاستدارت حول الطاولة لتلف ذراعيها حول عنقه، وتضع رأسها فوق رأسه.

ـ سيقال الكثير إذا استمريت تتجولين حولي هكذا طوال اليوم.

ـ أنت من تضع الشعلة داخلي!

فوقف فجأة يمسك بيدها ويجرها إلى غرفة النوم:

ـ باتريك... أنا جائعة.

ـ وأنا جائع... قد نتناول الطعام فيما بعد.

في النهاية ما عادا يهتمان بالافطار بل طلبا الغداء مبكراً. فقدمه لهما الساقي نفسه، رافعاً حاجبيه قليلاً عندما وجد الفطور بارداً... في هذه المرة ضحك باتريك على نظرته... فسألته سابينا وهي تتمطى:

ـ أكل أشهر العسل هكذا؟ لكنني لا أهتم بأي شهر عسل

آخر فأنا أجد شهرنا جميلاً جداً، وأنا سعيدة بزواجي منك باتريك.

فضحك:

ـ وأنا كذلك... والآن تناولي غداءك، فأمامنا طائرة علينا الالتحاق بها في الموعد تماماً.

لم يخفف شيء حتى السفر الطويل من سعادتها إذ كانت تجد نبعاً لا ينضب من المواضيع تتحدث بها مع باتريك... مع أن الأوقات التي أمضياها صامتين كانت ممتعة كذلك. كانت تحس أنها مربوطة إليه بخيوط خفية... وأنها تحبه أكثر من الأول، مع أنها تعلم أنه قد لا يبادلها الحب، إلا أنه يتمتع بعلاقتهما بقدر ما تتمتع هي بها.

استأجرا سيارة حالما وصلا إلى لوس انجلوس، فقد باعت سيارتها قبل أن تسافر. وسألها وهما يتجهان إلى منزل والديها.

ـ هل ستفتقدينها؟

ـ لوس انجلوس؟ أسكن فيها منذ سنتين. بالطبع سأفتقدها. لكنني الآن أملك شيئاً أفضل.

ـ أتمنى هذا.

فالتفتت إليه ساخرة:

ـ لقد امتلكتني الآن روحاً وجسداً، وتأخر الوقت كثيراً على الشك... فلنتوقف في أي نزل تريده على الطريق لأبدد لك بالبرهان القاطع شكوكك كلها.

ـ أظنني سأتريث على مضض حتى المساء.

ـ إن الليل في لندن قد حل.

ـ أيتها الخبيثة!

ـ حسناً إذا كنت تفضل الانتظار...

ـ لا أرغب في الانتظار... لكنني سأنتظر... خاصة وأنا أعلم مقدار شوقك إلي!

فابتسمت معترفة في سرها بما قاله... وقالت:

ـ والداي ينامان باكراً.

ـ أيعني أننا ستتمكن من النوم باكراً أيضاً؟

ـ يعني أن هذا الأفضل.

فضحك:

ـ ربما كان علينا تأخير هذه الزيارة إلى ما بعد شهر العسل، فعندها كنت ستراوغين وتتهربين مني.

لم تجادله في هذا، فهذا أمر سيتكفل الزمن وأفعالها بإيضاحه ثم أن ثلاثة أسابيع لا يمكن أن تكون كافية للبدء بالهرب منه.

رحب بها أهلها بحرارة بينما رحبا بباتريك مع شيء من التحفظ، فهما لم يقابلاه سوى مرة واحدة قبل حادث الطائرة. لكن باتريك كان في أوج سحره، وسعادتها بهذا الزواج لا يمكن الشك فيه. وما إن حان وقت النوم حتى كان والدها قد تخلى عن تحفظه نحوه.

قال لها باتريك وهو يتحضر للنوم:

ـ يبدو أن فيليب يهمه كثيراً.

ـ أجل.

ـ عندما يصبح أقوى عوداً سنحضره ليراه جداه.

ـ قالت أمي إنه لن يمر زمن طويل قبل أن يتعافى والدي ويصبح قادراً على السفر.

ـ ربما يزورانا عندما سنعمده.

ـ ربما... باتريك؟

ـ هه؟

ـ كم امرأة مرت في حياتك؟

ـ هل هذا سؤال يُطرح على عريس جديد؟

ـ سؤال صريح يتطلب رداً صريحاً.

ـ لن أبحث مثل هذه الأمور في شهر عسلي!

ـ اوه... عرفت... أنتم الأنكليز تعنون بالتحفظ عدم التكلم عن مثل هذه الأمور.

ـ كان هناك بضع نساء. مع أنني تعلمت أن أكون أكثر تحفظاً في السنوات الأخيرة.

ـ لكن عائلتك لا تظن هذا.

ـ اللعنة على عائلتي! أنت لست متزوجة منها.

ـ أشكر الله على هذا!

ـ لم أسافر كل هذه المسافة لكي أناقش أمر عائلتي... ألا يمكنك التفكير بشيء أكثر إثارة.

استأجر باتريك فيلا على الجزيرة وكانا لا يريان أحداً إلا الفتاة التي كانت تأتي كل صباح للتنظيف فكل شيء فيها حتى الشاطىء كان ملكهما وموضع حبهما... أمضيا الوقت في استرخاء على الشاطىء وفي تحضير وتناول وجبات لذيذة... وكانت مداعبة واحدة تشعل ناراً يدوم ساعات وساعات.

كان باتريك يضحك كثيراً... ضحك من كل قلبه خلال الأسابيع الثلاثة التي أمضياها وحدهما... بل أنه لم يعد يشبه في شيء ذلك الرجل المتجهم الذي أتى إلى لوس انجلوس يريد رؤيتها في شقتها للمرة الأولى... وتمنت من كل قلبها أن لا يعود إلى ما كان.

لكن كلما كانا يقتربان من انكلترا في الصباح التالي كان يعود إلى انعزاله وتوتره، رغم مزاحها معه. وحين بدأت رحلة العودة إلى منزل أهله لإحضار فيليب بات من المستحيل التصديق بأن هذا الرجل الجالس قربها هو ذاك الذي كان متمدداً معها على رمال الشاطىء يوم أمس، أو هو من ركض وراءها فوق الرمال الذهبية إلى الفيلا.

بدت لها باربادوس بعيدة بُعد الزمن الآن... وبدأت تحس بالبؤس للتغيير الذي أصاب زوجها عندما وصلا إلى منزل العائلة.

ـ لن نبقى هنا باتريك، أليس كذلك؟

لسان حماتها اللاذع لن تستطيع تحمل وقعه عليها خاصة بعد الوقت العصيب الذي مرّت به بسبب تبدل باتريك منذ لحظة وصولهما... فنظر إلى ساعته وهما يتجهان إلى المنزل:

ـ الساعة الآن الحادية عشرة والنصف، ولقد حان وقت الغداء تقريباً.

ـ لكن...

ـ لا يمكننا حمل فيليب والهرب هكذا. لا تكوني طفلة سابينا!

تصاعد الدم إلى وجنتيها... فلقد خسرت خلال هذه الأسابيع كل دروع وقايتها من الصدمات واعتادت على كلمات الاعجاب والتشجيع منه بدلاً من هذا التحفظ. لكن قناع التكبر عاد إلى مكانه ما إن شاهدت ليزا كيندل ترحب بابنها بحرارة قبل أن تلتفت إليها بالتفاتة باردة. وتأبطت ذراع ابنها تتجه معه إلى غرفة الجلوس، بينما راحت سابينا تجرجر أذيال الخيبة وراءهما:

- هل أمضيت عطلة سعيدة حبيبي؟

- الكاريبي مكان مرضي.

فنظرت إليه سابينا بحدة... مرضي؟ شهر عسلهما... مرضي؟ لكنها عادت إلى البرودة عندما أحست بنظرة ليزا كيندل المنتصرة:

- لو عذرتماني... سأذهب لرؤية فيليب.

لم تنتظر الرد بل اسرعت للخروج ولم تتوقف حتى أصبحت داخل غرفة فيليب.

كانت برودة باتريك بعد حرارة شهر العسل، تقطعها كسكين حادة فلم تصدق البرودة بعد ذاك التقارب الذي كان بينهما حين كانت نظرة أو ابتسامة كافية لمعرفة ما يريد أحدهما من الآخر... لقد هبط الآن درع حديدي بارد حول مشاعره ظهر فيه ذلك الغريب الساخر الذي عرفته من قبل. لكن مهما كان الذي يزعجه، ستعرف السبب في أسرع وقت ممكن.

لكن كان لباتريك خطة أخرى حول البقاء معاً في المنزل.

- سأوصلك وفيليب إلى منزلنا ثم اتوجه إلى المكتب بضع ساعات بعد الظهر.

نظرت إليه باستغراب... تلاحظ جيداً تظاهر أمه بعدم الاهتمام بالحديث.

- وهل أنت مضطر؟

فرد بحدة:

- ما كنت لأذهب لولا اضطراري. غبت عن مكتبي ثلاثة أسابيع والمؤسسة لا تدير نفسها بنفسها.

أجفلتها قساوة كلامه وكأنه ندم على الأسابيع التي قضاها معها... أو كأنه يعتبر أن ذلك كان هدراً لوقته، كيف له أن يكلمها بهذه الطريقة أمام أمه؟

قالت ليزا كيندل بكل رضى وسعادة:

- يبدو أن شهر العسل انتهى!

فنظر باتريك بسرعة إلى سابينا:

- هذا ما يبدو.

قالت الأم:

- على فكرة... لقد عرفت الصحافة بقصة زواجك... فالصحافة دائماً متطفلة.

- نعرف هذا... هل فيليب جاهز الآن سابينا؟ أظن أن علينا الذهاب.

فقالت أمه:

- لكن قهوتك...

قاطعها باقتضاب:

- لا أريد القهوة. وأنت سابينا؟

- لا... شكراً. سأذهب لاحضار فيليب... فالسيدة بريد قالت إنه سيكون جاهزاً بعد الغداء مباشرة.

قالت السيدة بريد بصوت متهدج وهي تعطي الطفل إلى سابينا:

ـ سأشتاق إليه.

فدعتها سابينا بحرارة:

ـ لك الحرية في زيارته متى شئت فأنت على الرحب والسعة.

ـ شكراً لك... سأحب هذا كثيراً.

انتظرت سابينا مع ليزا كيندل في غرفة الجلوس بينما كان باتريك والخادم يعبئان أغراض فيليب في السيارة... وكان الصمت بين المرأتين متوتراً... على الأقل من جهة سابينا، فليزا بدت واثقة من نفسها كالعادة... ولماذا لا تشعر بالثقة وابنها قال لها لتوه إن شهر عسله كان «مرضياً»!

سمعت ليزا كيندل تقول لها بسخرية:

ـ إذن لقد فشلت في الحفاظ على اهتمام ولدي بك بعد شهر العسل! كنت أعرف هذا... فأنت مثل كيم تماماً.

فصاحت بها سابينا:

ـ اتركي كيم خارج الموضوع!

قالت المرأة بكل ترفع:

ـ بكل سرور! وسأتركك أنت خارج أي موضوع عندما يدرك باتريك جسامة الخطأ الذي ارتكبه بزواجه منك... يبدو أنه ندم على تهوره!

اهتز الطفل بسبب ارتفاع وتيرة صوت جدته... فتوقفت سابينا عن هذه المناقشة ووقفت لتغادر المنزل ورأسها شامخ. أسرع باتريك لمساعدتها وإيصالها إلى المقعد الخلفي من

السيارة. فقالت له متوترة بصوت حاد:

ـ ربما تستطيع العودة لتشكر والدتك على الغداء... لقد نسيت.

نظر إليها متفرساً قبل أن يستدير نحو المنزل ليعود منه برفقة أمه التي قالت:

ـ هل لي أن احتضن فيليب لبضع دقائق... أرجوك؟

اعطتها سابينا الطفل. فلاحظت أن أساريرها المتجهمة انفرجت حتى الابتسام. ربما هناك أمل في هذا المرأة... فقالت لها:

ـ تعالي لرؤيته متى شئت.

نظرت إليها العينان الباردتان... وردت ليزا بعجرفة:

ـ هذا ما أنويه... إنه حفيدي.

فرد عليها باتريك بصوت منخفض:

ـ والمنزل منزل سابينا.

اخذ الطفل من أمه وأعاده إلى سابينا التي ابتسمت له شاكرة دفاعه عنها... لكن المتعجرفة ردت:

ـ ومنزل ابني كذلك!

ـ لكن سابينا ستمضي هناك وقتاً أكثر.

أثناء العودة قالت له:

ـ شكراً لك.

ـ هذه هي الحقيقة. ليتكما تتفاهمان...

لكنها قاطعته:

ـ باتريك... هل تعتقد حقاً أن شهر عسلك كان مرضياً؟

ـ أعتقد أنني قلت إن الجزيرة مرضية. ولم أذكر شهر عسلنا

كما لا يعقل أن أخبر أمي أننا لم نكن نغادر غرفة النوم.

حتى قوله هذا بدا إهانة، فقالت بحدة:

ـ ولماذا لا؟ فهذا ما يفعله معظم العرسان في شهر العسل!

فنظر إليها مشمئزاً:

ـ ربما أنا لا أحب التباهي.

● ● ●

جعلها فيليب مشغولة طوال الوقت إذ راح يستكشف ما حوله ويركز قليلاً على مداعبتها. ثم غط بالنوم بعد أن غنت له بعذوبة.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي قالت لها الخادمة المتوسطة العمر التي استخدمها باتريك مدبرة منزل:

ـ اتصل السيد كيندل منذ دقائق سيدتي. وعندما قلت له إنك مع الطفل، طلب عدم إزعاجك.

ـ هل ترك رسالة؟

ـ قال إنه سيتأخر في لندن، وطلب منك عدم ترقبه على العشاء.

ابتسمت السيدة كليفس بعد أن بلغتها الرسالة فقالت سابينا:

ـ شكراً لك. لا تحضري عشاء، فسأتناول شيئاً فيما بعد إذا جعت.

حارت من برودة باتريك ومن رغبته في الابتعاد عنها، فأن يقضي بعد الظهر في العمل أمر تتقبله، لكن أن يمضي الأمسية

كذلك فلا!

عندما أطعمت فيليب في العاشرة والنصف لم يكن قد عاد بعد إلى المنزل فما كان منها إلا أن وضعت الطفل في المهد ثم قررت الخلود إلى النوم... فقد لا يعود باتريك الليلة أبداً!

كيف له أن يفعل هذا بها في أول أمسية لهما في منزلهما الجديد؟ امتلأت نفسها بالغضب والأسى والألم... وعندما سمعت صوت سيارة باتريك تدخل الطريق الخاصة للمنزل كانت قد وصلت إلى نقطة الغليان. لن تسمح له بمعاملتها هكذا...!

كانت تقف في منتصف الغرفة عندما سمعت وقع أقدامه خارج الباب... كان ثوبها الحريري الشفاف يتعلق بكتفيها الزهريتين فقماشه الرقيق كشف أكثر مما غطى من جسدها... إذا كان باتريك يظنها من الزوجات اللواتي يتكورن في الفراش مدعيات النوم... بدلاً من المواجهة فهو مخطىء!

توقف باتريك مجفلاً عندما شاهدها تقف بكبرياء أمامه، فقال «سابينا!» ثم استعاد جأشه بسرعة، وأقفل الباب وراءه، وتقدم وهو ينزع ربطة عنقه:

ـ ظننتك نائمة.

ـ صحيح؟ لم أعتقد أن وقتك سمح لك بالتفكير بي أو ربما لم تشأ التفكير.

ـ سابينا...

حدجته بعينيها الخضراوين وقالت ترد عليه بالحدّة ذاتها:

ـ إذا كنت تريد إيقاف علاقاتنا الزوجية باتريك، فقل هذا بصراحة. وإذا كنت قد فشلت بإسعادك فقل هذا أيضاً...

فلست بحاجة للبقاء خارج منزلك لتتجنبني. فأنا... اوه...

صرخت شاهقة بعد أن جذبها بين ذراعيه، قائلاً بشراسة وهو يهزها:

ـ أوقف علاقتنا الزوجية! كيف لك أن تتحدثي عن أحاسيسنا المشتركة بهذه الطريقة؟

ـ أنت من تريدها هكذا!

ـ أنا أريدك أنت... يا إلهي! أنت تمنحيني سعادة لا توصف بالكلمات... أنا لم أتجنبك. على الأقل ليس بإرادتي. بل كنت أمهلك وقتاً... لإنهاء شهر العسل إذا أردت. لكن يبدو أنك لا تريدين... أليس كذلك؟

ـ أبداً...! أريدك كثيراً!

ودفنت وجهها في صدره. فاعترف بوحشية:

ـ وأنا أريدك.

وأطبق عليها، ليظهر لها أنه ما يزال يحبها ويريدها... وكانت معه لحظة بلحظة تستجيب له!.

● ● ●

فراشة المحبة

٨ ـ الشك المرير

تلك الليلة لم تتكرر ثانية. فما عاد يتأخر في العودة إلى بيته وما عاد يُظهر شيئاً من ذلك البرود.

فيليب بلغ الآن الشهر الثالث، فقد مضى شهران على زواج خالته وعمه، وهو يحس بجو السعادة يحيط به.

كانوا عائلة طبيعية... ولم تظلل الظروف المأساوية التي جمعتهما معاً علاقتهما. كما لم تجد غضاضة في دعوة ليزا كيندل لتناول الشاي بعد الظهر. كان باتريك يأخذ الطفل لرؤية جدته مرة في الأسبوع، خلال ستة أسابيع، لكنه لم يحاول طوال هذه المدة دعوتها إلى زيارتهما لأنه شعر بأن سابينا ممتعضة من لقائهما الأخير لكن سابينا اليوم تحس بسعادة عارمة لأنها دعت حماتها لاحتساء الشاي بعد الظهر. صدمت ليزا كيندل عندما تلقت الدعوة الرسمية عبر الهاتف. لكنها قبلتها... على كل الأحوال إنها والدة باتريك. ولن تدع هذه الكراهية تدوم إلى الأبد.

وصلت حماتها عند الرابعة والنصف بالضبط بعد الظهر، تقود سيارة العائلة بنفسها، وأحست سابينا بالراحة لرؤيتها وقد غيّرت مظهرها للمناسبة مرتدية بذلة زرقاء حريرية جذابة. لكن سابينا كانت قد تعلمت أن ارتداء الأثواب الفاخرة المكلفة أمر

لا يجدي بوجود الأطفال... ويبدو أن ليزا نسيت حتى الآن كيف يكون الأمر مع الأطفال!

قالت ليزا بعد أن تفحصت غرفة الاستقبال بعيني الناقد...

ـ لديك منزل جذاب... لا شك أنك استعنت بمساعدة خبير في الديكور.

فابتسمت سابينا لأن المرأة تحاول انقاص أهمية ما فعلته بنفسها:

ـ لا... فقبل أن أصبح ممثلة... درست فن الديكور الداخلي.

فقالت حماتها بترفع وازدراء:

ـ دراستك كانت مفيدة.

ـ أجل... هل تريدين أن أحمل فيليب إليك الآن؟

ـ حسناً... لذا جئت!

فرفعت سابينا حاجبيها هازئة، وقالت قبل أن تتوجه لإحضاره:

ـ ظننتك جئت لاحتساء الشاي.

تمكن من حسن الحظ فيليب من تخفيف حرج وارتباك المرأتين اللتين راحتا تراقبانه وهو على الأرض يحرك يديه وقدميه في محاولة للزحف، ثم يحمر وجهه غضباً عندما يعجز عن التحرك.

قالت سابينا ضاحكة وهي ترفعه عن الأرض:

ـ التمرين مفيد له، يقوي عضلاته... هذا قالته المرشدة الصحية التي تزورنا.

دغدغت الطفل في رقبته بأنفها ليطلق سريعاً ضحكات

لفرح... فقالت ليزا:

ـ لا أشك أبداً في صحة فيليب. لكنني اتساءل متى ستتعبين من تمثيل هذا الدور.

ـ دور؟

ـ دور الزوجة والأم الشغوف. قد تكونين ممثلة بارعة، لكن إلى أي مدى تظنين نفسك قادرة على متابعة التمثيل؟

أخذت سابينا نفساً عميقاً وقالت بحزم:

ـ سيدة كيندل... لقد دعوتك اليوم لاحتساء الشاي ورؤية فيليب... لكن الدعوة لا تشمل الإهانة!

ـ كنت اسأل فقط...

فوقفت سابينا غاضبة.

ـ إنه سؤال سخيف لا أهمية له عندي! أنا لا أمثل دور زوجة باتريك أو أم فيليب... فأنا فعلاً زوجة وأماً وقد ظننتك سيت أحكامك المسبقة وقبلتني على هذا الأساس.

ـ لقد تحملتك فقط لأن ولدي هو من اختار تدمير حياته زواجه منك... ولأنك شريكته في الوصاية على حفيدي وحيد. وإلا لما منحتك فرصة البقاء هنا يوماً واحداً! كنت علم أن نفوذك هو الذي منع ابني من دعوتي إلى منزله، وأعلم لك أنك أنت من تمنعيني من رؤية حفيدي متى شئت.

ـ لكن باتريك يحمله إليك أسبوعياً.

فصاحت المرأة بصوت حاد:

ـ نصف ساعة لا تغني عن جوع أبداً.

سمعتا صوتاً عميقاً رقيقاً يقول:

ـ إنه وقت طويل كما أعتقد.

التفتت المرأتان اتجاه الصوت، فإذا باتريك يقف بالباب

المفتوح. فمدت أمه يديها بتوسل وادعاء:

ـ باتريك حبيبي...

فرد ببرود وهو يدنو من سابينا:

ـ أمي...

ورفع يده على كتفي زوجته متملكاً، يجذبها إليه لأنه شعر بها ترتجف. فقالت سابينا متحدية:

ـ والدتك كانت على وشك الذهاب!

فهز رأسه متجهماً.

ـ هذا ما فهمته.

فشهقت أمه من الإهانة:

ـ باتريك أنت لا تعني ما تقول! أنا...

قاطعها بخشونة:

ـ وسابينا زوجتي... ولن أسمح لك أو لأي شخص آخر أن يهينها... وبلغي روزي قولي هذا.

فقطبت ليزا:

ـ روزي؟

ـ أنتما متشابهتان يا أمي... لكنك هذه المرة تماديت كثيراً... لقد أهنت زوجتي أمامي... مع أن سابينا كانت تحاول حمايتك وحماية ابنتك من أن أعرف طبيعتكما الخبيثة المنتقمة... اوه... بلى! لقد فعلت هذا! لكن بعد سماعي لك الآن... وسماع أكاذيبك التي تؤمنين بها... أظنك مخطئة... فلم أكن أنا المخطىء في زواجي من سابينا يا أمي... ولا شأن لها في عدم دعوتك إلى بيتي لأنني أنا من لم أرغب في زيارتك.

شهقت أمه من جديد:

ـ أنت؟ لا استطيع التصديق! باتريك...

قاطعها:

ـ بلى صدقي... وصدقي ما سأقوله الآن كذلك يا أمي... زواجي من سابينا ناجح تماماً... تماماً. وآخر شيء كنت أرغب فيه أن تأتي أنت إلى هنا... لكنك جئت... والآن... أنا أثني على طلب سابينا ذهابك حالاً من هنا. ولا أريد رؤيتك مجدداً قبل أن تشعري بأنك قادرة على الاعتذار من زوجتي على الاهانات التي وجهتها الآن وفي الماضي!

لم يلاحظ شهقة الدهشة التي صدرت من سابينا أمام صراخ أمه الفوري:

ـ لن أعتذر أبداً!

فاستدار يقرع الجرس لمدبرة المنزل وهو يقول:

ـ إذن... لا شيء يقال بيننا بعد. آه... سيدة كليفس... والدتي ستغادر المنزل حالاً.

ـ باتريك...

ـ وداعاً يا أمي!

نظرت بقلة صبر إلى مدبرة المنزل التي تنتظر أن ترافقها إلى الباب... ثم قالت لابنها:

ـ ستندم على هذا.

ـ لا أظن!

وسارعت الأم تغادر الغرفة... فارتجفت سابينا بعد أن بدأت ردة الفعل بالاستقرار في نفسها... فليس هناك أقبح مما فعله. فقال لها باتريك بلطف:

ـ أعطني فيليب.

أعطته الطفل، ثم دفنت وجهها بين يديها، وبكت:

ـ يا إلهي! لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟

فهز كتفيه:

ـ إنها لا تطيق رؤية الناس سعداء.

ـ أتعني أنها ترى إن ما من امرأة مناسبة لأولادها؟

فضحك:

ـ وهذا أيضاً... اسمعي... لا أعرف سبب كرهها لك... لكنها في النهاية ستعتذر لك.

ـ لقد سمعتها... قالت أبداً!

ـ ستفعل... وإذا لم تفعل فستخسر... هل يمكن أن تتركي فيليب مع السيد كليفس ساعة أو ساعتين؟ لتتنزه قليلاً على أعصابك تهدأ.

عندها فقط علمت أن باتريك بدأ يهبها نفسه مقابل ما تهبه إياه دون أن يحس بهذا... كان دائماً يمنحها السعادة كما تمنحه، لكن الأمر اختلف الآن، إنه يقدم لها الآن بعضاً من ذاته كاشفاً بذلك عن أشياء داخلية وها هما يزدادان تقارباً وألفةً.

حافظ باتريك على كلمته خلال الأسبوعين التاليين فلم يسمعا أو يشاهدا أمه. وهذا ما لم يزعجه لكنه أقلقها. فثمة مشاكل كثيرة في عائلته وهي لا تحب أن تكون سبباً في المزيد منها.

أخيراً أتت روزي فريستون لرؤيتها... ولم تكن سابينا قد نسيت بعد لقاءهما الأخير. أما روزي فبدت وكأنها لا تذكر ما حدث، لكن سابينا تعرف المرأة جيداً وتعرف أنها لم تنس. جلس الثلاثة في غرفة الاستقبال، والنار تشتعل في أمسية من

أمسيات كانون الأول... فسألته روزي:

ـ ألا تظن أنك عاقبت أمك ما يكفي؟

فرفع حاجبيه لدى سماعه الوصف:

ـ عاقبتها؟ أنا لم أعاقبها!

فتنهدت شقيقته بنفاذ صبر:

ـ إذن لماذا تصر على الابتعاد عنها ومنعها من رؤية فيليب؟

ـ أنا لست «مصراً» على شيء... إذا أرادت رؤيته فما عليها سوى الاعتذار من أمه.

فلمعت عينا روزي بالغضب وقالت بحدة:

ـ لكن سابينا ليست أمه!

فقال بصوت عميق خافت محذر:

ـ روزي! أكره أن أطلب منك الرحيل أيضاً.

لمست سابينا صدره متوسلة وهي تجلس قربه على الأريكة:

ـ باتريك أرجوك!

فصاحت بها روزي بلؤم:

ـ لا أحتاجك للدفاع عني!

لاحظت سابينا أن عينيه ضاقتا بشكل خطير، فالتفتت إليها مبتسمة وقالت بنعومة:

ـ أنا واثقة أنك لست بحاجة لي. على الرحب والسعة بأمك متى شاءت...

قاطعها باتريك بخشونة:

ـ ليس قبل أن تعتذر.

ـ باتريك...

ـ أعني ما أقول سابينا... كان تشارلز ضعيفاً جداً فلم

يحسن الدفاع عن زوجته ضد عائلته... لكنني لست كذلك.

فصاحت روزي:

ـ تشارلز كان ضعيفاً جداً لإيقاف أشياء كثيرة!

فأجفلت سابينا تنظر إلى المرأة بريبة... هل سبحت أمر أبوة فيليب أمام أخيها؟ لكنه وقف بعصبية شرسة:

ـ حسناً... لكنني لست ضعيفاً. لذا عودي إلى المنزل وأخبري أمك أن هذه الواسطة المتوسلة لم تنجح. فما أريده هو اعتذار لسابينا. وسأحصل على اعتذار.

بقي غضبه مسيطراً عليه ما تبقى من اليوم... لكن ما أن أصبحا معاً في الفراش حتى تحول إلى لطف وحب... وعاد الزوج المشتاق الذي تعرفه.

لم تظهر الدهشة على سابينا في الصباح التالي عندما أعلمتها مدبرة المنزل أن حماتها قد وصلت:

ـ أدخليها!

تحرك باتريك نحو المدفأة ليضع قدمه على الحاجز الحديدي وابتسامة تساهل تظهر على وجهه من مرأى وجه سابينا المتوتر.

ـ استرخي... لن تؤذيك.

ـ لكنها ستحاول.

لم تكن ليزا كيندل امرأة يسهل عليها الاعتذار فقد دخلت الغرفة شامخة الرأس، عيناها تلمعان وكأنها تستعد لمعركة. فقال باتريك:

ـ صباح الخير أمي...

فهزت رأسها ببرود وصوتها يزداد قساوة وخشونة:

ـ باتريك... سابينا!

بدا أن الصمت امتد طويلاً بعد هذه التحية المقتضبة. إذ لم يرغب باتريك في وصل هذه الهوة... أما سابينا فلم تجرؤ على التدخل. فهي تعلم إنه مصمم على سماع اعتذار أمه.

أخيراً استدارت العينان الزرقاوان الباردتان إلى سابينا. وبدت الكلمات تخرج بالقوة من ليزا كيندل:

ـ أعتقد أنني مدينة لك باعتذار... لاعتراضك على شيء قلته لك...

فصحح لها باتريك كلامها بقساوة:

ـ بل أنا من اعترض.

فظهر الإحراج أكثر على أمه:

ـ حسن جداً... أنا آسفة سابينا إذا كان ما قلته بدا فظاً.

فصاح باتريك ثانية:

ـ لم يكن «يبدو» أمي... بل كان فظاً... وسمعته بنفسي. أتذكرين؟

بعد ثوانٍ قليلة لاحظت سابينا أن شفة العجوز السفلى ترتجف دون إرادة منها. وعلمت أن ليزا كيندل لا تسيطر على نفسها كما تظهر. فسارعت لتقاطعهما:

ـ هذا يكفي... إنه اعتذار مناسب...

إذ لم تطق أن تذل هذه المرأة... فباتريك رجل ظالم قاس. وأكملت:

ـ هل تودين رؤية فيليب؟ لا شك في أنه استيقظ الآن.

ـ شكراً لك.

وضعت ليزا الطفل على ذراعيها فاستلقى بينهما يثرثر...

ـ لقد نما كثيراً خلال أسبوعين.

ـ أجل... سيدة كيندل...

ـ بل ليزا...

ضحكت عندما طالعتها دهشة سابينا:

ـ اوه... لا تقلقي... لن أنقلب فجأة من ساحرة شريرة إلى جنية طيبة، لكنني ذكية حتى أعرف أن باتريك قد اختار ما يجب أن يختاره كل إنسان في يوم من الأيام، بين عائلته وبين زوجته. لم يبدُ تشارلز قادراً على هذا الاختيار... وربما ذلك كان غلطتي. لكن باتريك يشبهني أكثر من الآخرين... ولقد قرر... أن لك ولفيليب الأولوية في حياته... فأما أن أقبل أو أخسركم جميعاً... وسأقبل.

رضيت بقول المرأة لكنها رأت أن الأولوية في حياة باتريك هي للطفل... فهو لا يحبها وقد لا يحبها أبداً.

وصل أبواها لقضاء الميلاد معهما وبقيا حتى حان موعد تعميد فيليب في شهر كانون الثاني... وكان والدها قد غدا أقوى بكثير... وما عاد يحتاج إلا أن يرى فيليب الصغير.

كانت المناسبة أول احتفال رسمي تكون فيه سابينا مضيفة لباتريك. وأرادت أن يكون كل شيء كامل وأرادته أن يكون فخوراً بزوجته... وساعدتها ليزا كثيراً في ترتيب الاحتفال... إذ كانت المرأة محقة... فهما لم تصبحا صديقتين فجأة، بل كانتا تتحملان بعضهما بعضاً... وكانت تساعدها.

كانت مراسم الكنيسة مختصرة وجميلة وهادئة فلم يبك فيليب عندما وضعت المياه على رأسه.

ضحكت أم سابينا بعد أن عادوا إلى المنزل.

ـ لقد ذكرني فيليب بك كثيراً في تلك اللحظات.

غدا والداها وباتريك صديقين خلال أسابيع إقامتهما هنا... فكبحت سابينا ابتسامة وهي ترى حاجبي زوجها ترتفعان. فقد كان يتحمل الكثير من المزاح منهما... فتحفظه الانكليزي كان مبعث تسلية لهما. ثم قال:

ـ لا بد أنه تساءل ماذا يجري في هذه الدنيا... لن يعرف حتى أننا سنعمده ثانية بماء الورد هنا خلال الحفلة.

ـ صحيح؟

ـ أجل إنها هدية من والدك... سأذهب لأحضر كل شيء.

تأملت سابينا الغرفة بعيني المضيفة الناقدة. تريد أن تتأكد أن كل شيء في موضعه المناسب وأن الجميع يحصل على ما يريد من طعام وشراب وتسلية وصحبة.

التقت عيناها بعينين زرقاوين متألقتين... عيني روزي كريستون، التي وقفت غير بعيدة عنها، يلتوي فمها بسخرية.

لم تشعر سابينا قط بالراحة مع هذه المرأة وكانت اليوم ترى أن عند هذه المرأة شيئاً ما ستقوله في الوقت المناسب يكون ضربة موجعة. إنه شعور سخيف... فتصرفات المرأة كانت دائماً مرضية. واليوم الذي أمضياه معاً وقت الميلاد كان ممتعاً. ومع ذلك... فذلك القلق ملّح...

ابتسمت لها روزي الآن. وقد غادرت كل الكراهية أساريرها. مما جعل سابينا تتساءل عما إذا كانت تتخيل الحقد في تلك النظرات.

ـ هاك كأسك يا حبيبتي!

التفتت سابينا لتتقبل الكأس من زوجها وابتسمت له

بحرارة، ناسية وجود روزي كله. فالأنخاب ارتفعت لسعادة فيليب. ثم أخذت الأيدي تتناقل الطفل ليدي المدعوون إعجابهم به...

وقفت روزي فجأة قرب سابينا وهي ترشف كأسها:

ـ أمك على حق... لفيليب مواصفات سابينا نفسها. ولا أقصد الإهانة... لا سمح الله لأن باتريك قد يطردني!

أحست باتريك بعودة القلق إليها لكنها ردت بلطف:

ـ لا أحسبك تقصدين الإهانة.

نظرت روزي خارج النافذة القريبة منهما وأكملت:

ـ يتوقعون سقوط الثلج اليوم... ويبدو أنهم سيصدقون هذه المرة!

تقدمت سابينا لتقف قربها وردت بلطف:

ـ أجل.

التفتت إليها العينان الباردتان:

ـ سيعود أبواك إلى أميركا قريباً؟

فأحست سابينا بالحزن:

ـ بعد يومين.

ـ يبدو أنك ستفتقدينهما.

ـ طبعاً.

ـ لكن باتريك... وأمي سيبقيان.

ـ أجل...

قطبت سابينا، فروزي لم تتحدث إليها منذ زفافها، وكلاهما تعرف كيف كان ذلك الحديث.

تابعت روزي بمرح:

ـ أمي أصبحت رائعة معك... على كل الأحوال... أنت

تحتفظين بحفيدها.

ـ روزي... لا أظن...

فقاطعتها بخبث:

ـ ألا تظنين أن الوقت مناسب لمناقشة موضوع كهذا... سابينا... هل أنت سعيدة مع أخي؟

انتقلت نظرات سابينا لا شعورياً إلى زوجها والحب يضيء عينيها تراقبه وهو يضفي سحره على أهلها، فرفع رأسه إليها وكأنه أحس بنظرتها. فابتسم لها ابتسامة حارة قبل أن يخطف فيليب اهتمامه.

سمعت روزي تجيب عن السؤال:

ـ بالطبع أنت سعيدة. هو مع فيليب يبدو أنه على أكمل حال أليسا كذلك؟ وكأنهما أب وابنه.

ـ روزي...

ـ لكن ربما يعود السبب إلى أنهما فعلاً أب وابنه.

شحب وجه سابينا حتى الابيضاض واتسعت عيناها ذهولاً.

ـ ما... ماذا... ماذا قلت؟

أحست بجفاف في فمها... والتصق لسانها في حنكها... لكنها كانت واثقة أنها لم تسمع ما قالته المرأة جيداً. فما تقوله جنوناً!

سمعت روزي تقول بسخرية:

ـ أتريدين سماع الكلمات مرة أخرى... لن أزعج نفسي في إعادتها سابينا... انظري إليهما... انظري!

أشاحت بوجهها إلى البعيد لكن المرأة أمرتها بشراسة.

ـ انظري! لهما الشعر المتموج ذاته ولون العينين نفسه

والفك المرتفع نفسه بل لهما التكبر ذاته.

سابينا لم تكن تلاحظ هذا التشابه كله، أما الآن فقد لاحظته إذ أصبح واضحاً كل الوضوح لها بعد أن أشارت إليها هذه المرأة الشريرة الحاقدة!

باستثناء الشعر الناعم الأحمر المسترسل، كان فيليب انعكاساً لصورة باتريك...

لكن أن يكون ابنه؟

لا...! لا يمكن أن تصدق هذا!

ولن تصدقه!

● ● ●

فراشة المحبة

٩ ـ لن أقع في الفخ

ـ يجب أن تصدقي سابينا... فهذه الحقيقة!

أجفلتها كلمات روزي التي قطعت عليها أفكارها.

ـ لا...!

أصبحت بيضاء تكاد تخالط الزرقة وجهها، فجحظت عيناها... وأظهر ثوبها الأسود بشرتها أكثر شفافية. لكن سرعان ما أصبح باتريك قربها.

ـ سابينا! حبيبتي... ما الأمر؟

فأجابته روزي بكل وقاحة:

ـ إنها لا تشعر بأنها بخير... فالمكان حار جداً هنا بسبب النار وكل هؤلاء الناس. سأرافقها إلى غرفتها لتستريح.

لف ذراعه على كتفي سابينا:

ـ سأرافقها بنفسي.

لكنها أجفلت مذعورة من بين يديه:

ـ لا!... أنا... لا!...

تحركت مبتعدة عنه، تنظر إليه وكأنها لم ترَ هذا الوجه من قبل.

فقالت روزي بنعومة:

ـ سأوصلها بنفسي فلديك ضيوفك باتريك. لا يمكنكما

تركهم معاً.

بدا باتريك متردداً إذ راح ينقل نظره من شقيقته إلى زوجته حائراً، فحثته روزي:

ـ غراهام وشيلا سيغادران الآن.

فنظر إلى المدعوين ومنهم إلى سابينا:

ـ أنا مضطر لتركك... هل ستكونين على ما يرام؟ سأكون عندك حالما يرحل الجميع.

ـ سأكون بخير...

كان عليها الابتعاد عنه قبل أن تجعل من نفسها أضحوكة وتسأله مباشرة ما إذا كان ما قالته روزي صحيحاً... فاستدارت وهي تمتم:

ـ ساصعد إلىّ غرفتي لأستلقي قليلاً.

لم تدرك أن روزي لحقت بها حتى وصلت إلى غرفتها. فتوقفت عند الباب، والتفتت إليها، والتصميم في وجهها:

ـ أفضل الوحدة.

ـ ألا تريدين معرفة ما تبقى عن علاقة باتريك بكيم؟

ـ لا أصدقك...

ـ لماذا إذن أجفلت مبتعدة عنه منذ لحظات؟

دفعت الباب بسهولة وتبعت سابينا المذهولة نحو سريرها فجلست عليه بعنف تضيف:

ـ لقد قلت لك إن هناك رجلاً آخر سابينا... ألم تفكري قطّ بباتريك؟ إنه مناسب... وكيم جميلة جداً.

كان صوتها ناعماً ساحراً كفحيح الأفعى، فتأوهت سابينا:

ـ لا...!

أغمضت عينيها لتمنع الكابوس عن الاستمرار. لكن المرأة استمرت بالفحيح...

ـ بلى! وإلا لماذا تظنين أنه مصمم على إبقاء دايفد في انكلترا؟ لماذا تظنينه تزوجك؟... أنت جميلة، أعترف لك بهذا... بل أنت تشبيهن كيم... ربما في الظلام... لا يمكن...

فوقفت سابينا بشراسة، وقبضتا يديها مشدودتان.

ـ توقفي عن هذا! توقفي! لا أريد سماع المزيد!

ـ حسناً... هذا مؤسف جداً... كنت سأخبرك بكل شيء. أترين... كيم كانت غير سعيدة هنا... وكان باتريك لطيفاً معها دائماً... لذا كان من المتوقع أن ترتد إليه عندما بدأ تشارلز يسأم منها.

لمعت عينا سابينا كزمردتين خضراوين:

ـ هذا كذب! باتريك لا يفعل شيئاً كهذا بشقيقه!

فالتوى فم روزي بازدراء:

ـ عندما يكون هناك جنس لا يتردد الرجل أبداً.. فكري... سابينا فكري!

لن تفكر فهي تعلم أن قولها كذب وافتراء... لكن الشك أخذ يستبد بها... لقد رفض باتريك أن يغادر فيليب انكلترا... وكانت ذريعته صغر سن فيليب لكن ذريعة الأبوة أقوى!

أحست بالسقم وهي تتصور أن باتريك كان يطارحها الغرام ظاناً أنها كيم! خلال تلك الأوقات ما كانا يتبادلان الكثير من الكلام... ربما لو تكلمت، لأدرك أنها ليست كيم وعندها يفقد

رغبته فيها. اوه... هذا كله جنون... ومع ذلك قد يكون صحيحاً!

اتفقا على الصدق والصراحة... لكن في هذا الموضوع لن تستطيع التحدث إليه... فهي تخشى الردا فقد يتحطم زواجها إذا علمت أنها بديل لشقيقتها.

كانت تستلقي في الفراش شاحبة الوجه جافة الدموع عندما دخل عليها باتريك... فنظرت إليه بعينين منخفضتين وهو يجلس قربها على السرير... قائلاً بنعومة:

ـ ذهب الجميع... هل يؤلمك رأسك؟

ـ يؤلمني رأسي؟

ـ أنت مستلقية هنا في الظلام.

إنها لم تلاحظ حتى أن الدنيا أظلمت! فمال فوقها ليضيء المصباح الخافت قرب السرير.

ـ غادر الجميع باكراً بسبب الثلج... إنه يهطل بكثافة الآن... والحفلة فقدت بهجتها دون المضيفة... طبعاً.

أشاحت وجهها عنه وقالت بجفاء:

ـ آسفة.

ـ هاي... إنني أمازحك... قلق عليك الجميع، بما فيهم أنا...

ـ إنه صداع... تعب الميلاد والتعميد.

ـ أهذا كل شيء سابينا؟... ألم تكن روزي تغرز خنجرها المسموم ثانية... أهذا هو الأمر؟

ـ روزي؟

ـ لقد اختلف حالك فجأة بعد أن تكلمت معك.

ـ ألم الرأس يهاجم المرء فجأة...

لم يقتنع فقال بعد لحظات:

ـ هل أنت بخير حتى تري أبويك؟ إنهما قلقان.

ـ لا أريد رؤيتهما. أود الإغفاء قليلاً... هل تعتذر منهما؟

ـ طبعاً... هل تريدين رؤية فيليب قبل النوم؟

ـ يجب أن أضعه في فراشه...

ـ أمك ستضعه كما إني قادر على ذلك مرة واحدة... أتظنين أن العناية به هي سبب الصداع؟ إذ كنت تستيقظين في الليل لأجله.

بعد حديثها مع روزي فريستون لم تعد واثقة ما إذا كان هذا القلق عليها لمصلحة ابنه أم لا... إنها تسمح لكلامها المسموم أن يسيطر على تصرفاتها غصباً عنها... ولم تتمكن من إيقاف ما قالته:

ـ كل الأمهات يفعلن ذلك... ولست من مادة قابلة للانكسار بسرعة باتريك.

دهش لانفجارها الكلامي هذا... فأطباعها عادة بعيدة عن الجدال والخصام... لكنه قال بلطف:

ـ أعلم هذا حبيبتي. لكنني لم أرغب في أن تجهدي نفسك به حتى المرض.

ـ رأسي يؤلمني باتريك... ولست مريضة!

ـ حسناً سابينا... سأحضر فيليب لتريه قبل أن ينام...

رفضت العشاء... واستحمت ثم دخلت الفراش، تحاول يائسة أن تغفو قبل وصول باتريك... لكنها كانت صاحية عندما دخل بهدوء إلى الفراش قربها، وأحست به يلتصق بها ويغطي نفسه. ثم لمس كتفها بهدوء:

ـ سابينا؟

أغمضت عينيها بشدة، والإحساس بالشوق يغمرها للمسته... فردد بصوت أكثر حدة:

ـ سابينا؟ هل تحسين بالبرد حبيبتي؟

البرد؟ إنها تحس بالصقيع... فمشاعرها كلها مخدرة!

ـ قليلاً!

فضمها بين ذراعيه بحيث أصبح وجهها في صدره:

ـ دعيني ادفئك.

فدفعته عنها:

ـ ليس الليلة. ما زال الصداع يؤلم رأسي... و... وأنا...

ـ لا بأس سابينا. لن أضايقك... سأضمك فقط الليلة... حتى هذا لن تطيقه!

ـ أنا دافئة الآن... باتريك. سأنام في الجهة المقابلة من السرير. ربما سأصاب بالرشح.

تركها ببطء وتردد:

ـ ربما... أواثقة أنك لست متكدرة من شيء ما؟

ـ بالطبع لا... لن يروق مزاجي لطلباتك كل ليلة باتريك!

فاستلقى على ظهره:

ـ لا... أظننا بدأنا نصل إلى لب الموضوع... أليس كذلك سابينا؟ وسأقبل بهذا لأنك لست على ما يرام. ولكن هذا لم يمنعك عني من قبل. فأنت الليلة لا تسمحين لي حتى باحتضانك... وتقولين الآن إنك لا تشعرين بالرغبة. أأنت مريضة... أم مزاجك عكِر؟

ـ إنه مزاجي!

ـ هذا ما ظننته... عمت مساءً!

أدار ظهره إليها... فاستلقت بائسة على الجانب الآخر من الفراش، وسرعان ما غط في النوم. لكنها لم تطق الابتعاد عنه، فاستدارت ثانية حتى أصبحت متكورة خلف ظهره، ذراعها حول خصره ورأسها مستريح على ظهره... فأطلقت تنهيدة ارتياح وسعادة ثم غفت بارتياح.

كانت وحدها في صباح اليوم التالي المبكر عندما استيقظت، فأسرعت إلى غرفة فيليب فوجدتها فارغة كذلك. ثم وجدته مع باتريك في غرفة الطعام... طغت عليها حمرة الحرج عندما نظرت إلى زوجها... فنظر إليها ببرودة... ينهي قهوته قبل أن يقف:

ـ كيف تشعرين هذا الصباح؟

ـ أفضل حالاً... شكراً لك.

ـ لقد أطعمت فيليب... كنت نائمة عندما استيقظت ولم اشأ أن أزعجك.

ـ شكراً لك... سأغسله الآن.

ـ تناولي فطورك أولاً!

فردت بجفاء واختصار:

ـ لا أريد.

ـ أنت لم تتناولي العشاء ليلة أمس... قد تمرضين...

اصطبغ وجهها بالأحمر من الغضب هذه المرة. إذ لم تستطع أن تصدق أن التقارب الذي بنته خلال ثلاثة أشهر قد يتدمر بسبب جدال بسيط يتعلق بعدم السماح له باحتضانها بالأمس. أهذا زواجهما... مجرد صلات زوجية؟ فقالت

متوترة:

ـ قلت لست جائعة... عن اذنك.

حملت الطفل وابتعدت عنه، فأوقفها صوته:

ـ سابينا؟

ـ نعم؟

ـ هوني عليك اليوم، واضبطي أعصابك... هه؟

تلاشى غضبها بسرعة كما ثار... وامتلأت بالحيرة... فهي تحب هذا الرجل رغم ما قالته روزي.

ـ أنا... أنا... حاضراً

اتجهت بسرعة إلى غرفة الطفل. تنوي أن تشغل نفسها لئلا تفكر.

أمضت اليوم الأخير من عطلة والديها معهما بمرح. فهما سيسافران في اليوم التالي ظهراً... وسيصعب عليها فراقهما، وعليهما الافتراق عن حفيدهما.

قال لها باتريك خلال الأمسية بعد أن وضعت فيليب في فراشه.

ـ سنأخذ فيليب معنا إلى أميركا في الصيف.

دهشت سابينا لهذه المعلومات. فهو لم يذكرها لها من قبل.

ـ إنها مفاجأة لكم جميعاً... لقد فكرت في قضاء إجازة هناك في تموز.

نظرت إليه مبتسمة.

ـ سيكون هذا رائعاً.

ـ هذا ما ظننته... شرط أن يستقبلنا فيل وسارة طوال المدة.

لقد أصبح ووالديها اصدقاء بشكل غريب... وكان رد والدها معروف إذ قال بحرارة:

ـ لك أن تبقى شهرين يا ولدي. فأنا وسارة سنسر بكما.

ـ لا أستطيع التعطيل أكثر من شهر واحد... لكن في المرة القادمة قد نبقى وقتاً أطول.

المرة القادمة! لقد ذكرها هذا أن زواجها به أمر دائم... وأنه زواج طبيعي تم باختيارها، وبإرادتها! فقالت الأم:

ـ أهلاً بكما متى شئتما... لقد أمضينا معكم وقتاً رائعاً هنا. وسنسرنا صحبتكم. عندما قالت لنا سابينا إنها ستتزوج من شقيق تشارلز... حسناً... نحن...

فأكمل باتريك:

ـ قلقتما... وهذا أمر طبيعي. أستطيع تفهمه... لعلكما بعد أن رأيتمانا اقتنعتما أننا تزوجنا لأننا نريد بعضنا... ورأيتما أيضاً أنني لست ممن يضرب زوجته.

تألقت عينا الوالد وهو يمازح سابينا بقصد ازعاجها:

ـ عندما كانت صغيرة... كانت تستحق أكثر من الضرب... فقد كان لها طبع شرير!

فنظر إليها باتريك ضاحكاً:

ـ حقاً؟

بدا والدها راضياً عن كشف سيرة طفولتها... وكان عليها أن تعاني من مهانة كشف كل مساوىء طفولتها... وكانت ضحكات باتريك خلال العشاء تتصاعد... وبدا في مطلق الأحوال أنهما عائلة سعيدة. وما من أحد منهما يحس بما يعتمر نفس سابينا... قد تتمكن من التظاهر ليوم... أو لأسبوع.

لكن كيف ستتمكن من التظاهر ما تبقى من عمرها...؟

في غرفتهما... تقدم باتريك ليقف وراءها وهي واقفة أمام المرآة تسرح شعرها استعداداً للنوم... ولم تعد تستطيع فعل شيء سوى التحديق في انعكاس صورته في المرآة:

ـ كيف تشعرين الليلة؟

ـ أنا...

صمتت لدى تصاعد صيحة صغيرة حادة من غرفة الطفل:

ـ فيليب!... إنه متكدر طوال اليوم... سأذهب إليه!

لحق بها باتريك إلى غرفة الطفل الملحقة بغرفتيهما ليقف بالباب وسابينا تحمله... ثم سأل:

ـ مَمَ يعاني يا ترى؟

ـ لقد طُعِّم ولعله محرور.

ـ وهل هذا أمر طبيعي؟

ـ طبعاً! إنه لا يشكو من شيء آخر. لماذا لا تعود إلى غرفة النوم. سيكون بخير معي... عد إلى فراشك!

ـ لكنه مريض...

ـ إنه محرور قليلاً... أخبرتني الممرضة أنه قد يتعرض إلى هذا.

ـ حسناً... سأعود إلى الفراش... ما دمت واثقة من كل شيء!

أقفل الباب المشترك بعنف مفاجيء.

بقيت مع فيليب أكثر مما هو ضروري... مع أن فيليب سكن بعد دقائق من هدهدتها له لكنها أمهلت باتريك بعض الوقت لينام.

فجأة انفتح باب الغرفة بعنف ووقف باتريك ليقول بخشونة:

ـ تعالي إلى الفراش سابينا... لن ألمسك!

ـ باتريك!

أمرها بمرارة قبل أن يستدير ليعود إلى الغرفة المظلمة:

ـ عودي إلى الفراش... سابينا؟

فوقفت تدثر الطفل جيداً قبل أن تدخل غرفة النوم حيث كان زوجها مستلقياً على جنبه في الجهة المقابلة من السرير وظهره إليها.

لم تر زوجها حتى الصباح فقد تناول الأربعة فطورهم معاً. لم يذهب باتريك إلى العمل كي يتمكن من إيصال أبويها إلى المطار. وكانت هذه بادرة لبقة، علمت سابينا أن والديها سيقدرانها له... وهذا يعني أنه سيكون معها ما تبقى من اليوم.

دخلت أمها غرفة الطفل لتساعدها في إلباس فيليب ثيابه للذهاب معهم... وقالت باكية:

ـ إنه يشبه كيم.

لكن... كل ما كانت تشاهده سابينا فيه شبهه لباتريك. حملت أمها الطفل بعد أن انتهى من ارتداء الملابس.

ـ لقد تمتعنا حقاً بالإقامة معكما. لقد جعلنا باتريك نحس أننا على الرحب والسعة هنا... وكم سرتنا سعادتكما معاً. ويجب أن أقول انني ووالدك أحسسنا بالقلق عندما قررتما الزواج. كنا نتساءل عما إذا كان الزواج لمصلحة فيليب فقط... إذ كان سيكون كارثة.

ـ صحيح!

ـ لكن الجميع يعرف الآن أنكما سعيدان، ونحن مسرورون لك سابينا.

جلست سابينا في مؤخرة السيارة مع أمها وفيليب. وجلس والدها قرب سابينا... لكنها تجنبت لمسته عندما حاول مساعدتها في النزول من السيارة قرب المطار. فلمعت عيناه غضباً قبل أن يستدير ليساعد والدها بإنزال الحقائب.

ما أن دخل والداها قسم الجمارك، حتى أجهشت باكية، وقبلت الراحة التي وفرتها لها ذراع باتريك حول كتفيها... إذ أحست فجأة أنها وحيدة... مهجورة، وكأن سفر والداها تركها في فراغ.

قال لها باتريك أثناء العودة:

ـ أتودين ترك فيليب برعاية مدبرة المنزل... لنخرج معاً الليلة؟

ـ لا... لن أتركه الآن فهو ليس على ما يرام بعد.

ـ ظننتك منزعجة قليلاً بعد سفر والديك... وفيليب بخير اليوم.

ـ حسناً... صحيح... لكنني سأمهله يوماً بعد لأتأكد.

ـ ألا تريدين الانفراد بي... لماذا... اوه... لا بأس... ربما فهمت السبب.

ـ فهمت ماذا؟

فرد متجهماً:

ـ ليس الأمر مهماً.

للمرة الأولى منذ زواجهما يمضي باتريك الأمسية كلها في مكتبته يعمل. كانت تعلم أن لا عمل يضطره إلى ملازمة مكتبه

لكنه يحاول تجنبها، بل أنه لم يحاول أن يلمسها وهما في الفراش جنباً إلى جنب. ولم يتكلم أي منهما، ولكنه كذلك لم ينم. وحاولت سابينا كبح دموعها. فلو بكت لطلب تفسيراً... لكن الدموع أبت البقاء وراء السد. فهبطت بصمت على خديها لتبلل وسادتها.

ـ هذا كله سخيف لعين!

أجفلها انفجاره الفجائي وجذبها إليه:

ـ لن استطيع... سابينا أنت تبكين؟ حبيبتي ما الأمر؟ ماذا دهاك؟ أخبريني ما الأمر لنحل المشكلة.

فهزت رأسها، وراحت تجهش بالبكاء منتحبة. فجذبها إليه فتعلقت به دون خجل.

ـ سابينا تكلمي... قولي ماذا فعلت لك!

ـ لا شيء... لم تفعل أي شيء.

ـ لماذا البكاء إذن؟ لقد تصرفت معك بشكل سيء في اليومين الأخيرين... لك مطلق الحق في الرفض، لكنني لا أستطيع الاستغناء عنك. أحتاج إليك طوال الوقت يا حبيبتي.

لم تعد تطيق أكثر... هل يتصورها كيم بين ذراعيه يا ترى؟ دفعته ودفنت وجهها بعيداً عنه.

ـ لا!

كانت صرختها صرخة حيوان جريح! وكان باتريك يتنفس بصعوبة وهو ينظر إليها:

ـ لا؟

هزت رأسها بصمت، وانهمرت دموعها مجدداً وهي تنظر إليه. ثم قالت بصوت يرتجف:

ـ باتريك... أظن من الأفضل أن أعود إلى أميركا!

فضاقت عيناه.

ـ وهل اشتقت إلى موطنك؟ هل جعلتك زيارة أهلك تدركين أنك اشتقت إلى وطنك؟

ـ لا... فأنا أحب العيش في انكلترا... لكن أظن أن عليّ الابتعاد.

ـ لماذا؟

ـ أظن... أنا... لن أستطيع... لن أستطيع...

ـ لن تستطيعي أن تحبيني أهذا هو الأمر؟ إذن أنت لا تريدينني قربك؟

أبعد عنه غطاء السرير، وبدأ يرتدي ملابسه... فأحست بالألم للازدراء الذي بدا في صوته:

ـ باتريك... أنا...

ـ أتريدين هذا؟

ـ لا.

ـ يا إلهي! أنت أبرع مما ظننت في التمثيل... لقد مثلت دور المحبة المطيعة... الراغبة...

ـ لكنني كنت محبة راغبة.

ـ لكن كلمة كنت هي فعل ماضي. حسناً... أنا لم أقع في فخك بعد كما تظنين. صحيح أريدك... وأريدك الآن أيضاً لو رغبت... لكنني لن «أطلب» منك بعد الآن... لن تجعليني «أتوسل» للحصول على جسدك!

فصاحت وهو يفتح الباب:

ـ باتريك... إلى أين؟

ـ سأخرج... لا أطيق البقاء قربك... فأنت عكس ما

ظننت. لقد راقبت رجلاً شريفاً تسيطر عليه شهوته وتتلاعب به من أجل جسد امرأة... ولن أقع في مثل هذا الفخ.

ـ باتريك...

ـ توقيتك خاطىء سابينا. ربما بعد بضعة أشهر أخرى... ربما! كنت ستتلاعبين بي لأقع في الفخ... لكن ليس الآن.

قفزت واقفة:

ـ باتريك لا تغادرني هكذا! فلتتحدث أولاً... سأشرح لك...

ـ لن أهتم بما ستشرحين... فأنا لا أحتاج إلى الشرح.

ـ لكن لا يمكنك الخروج!

ـ ولماذا لا... الساعة لم تبلغ الحادية عشرة... وأعرف نساء مستعدات لاستقبالي الليلة في فراشهن... تصبحين على خير سابينا...

●●●

فراشة المحبة

١٠ ـ بدأ الجد

لقد ذهب باتريك إلى امرأة أخرى وهي من دفعته إليها.

لكنه بالتأكيد لن يذهب؟ فذلك خيانة لكل ما تشاركا به... لكن ألم تخن هي برفضها حبه وعد الزواج الذي قطعته له، والاتفاق الذي اتفقته معه؟ لو ذهب إلى امرأة أخرى الليلة فالذنب ذنبها!

عرفت الآن أنها غبية... عرفت هذا لحظة خطأ باتريك خارج باب الغرفة. لم يكن قط على علاقة مع كيم فهو أشرف من أن يفعل هذا. ربما وجدها جذابة، أو رغب فيها لأنها تشبه شقيقتها. لكنه ما كان ليعاشر زوجة أخيه... وفيليب ليس ابنه.

كان يجب أن تعرف أن هذا كذب وافتراء مذ أن تفوهت به روزي فريستون فهي تعرف زوجها معرفة جيدة تجعلها تؤمن به وها هو الآن قد ذهب إلى امرأة أخرى، مقتنعاً أنها لم تعد ترغب فيه. وأن كل ما أظهرته من حب لم يكن سوى لتوقعه في فخ جسدها. كما حدث لصديقه الذي يعرف قصته.

لم يعد إلى المنزل في الصباح... فألبست فيليب ثيابه... وقصدت بالسيارة منزل حماتها. إذ لن تسألها عبر الهاتف ما إذا كان باتريك قد أمضى ليلته هناك!

بعد نصف ساعة، لم تذكر ليزا باتريك ولمّا ذكرته سابينا

أمامها لم تتلق منها سوى رداً عادياً... إذن هو لم يمضِ ليلته هنا!

ـ أتمانعين في الاعتناء بفيليب لفترة... سأتسوق قليلاً... فهو ما زال محروراً.

فابتسمت ليزا:

ـ أنت تعلمين أنني أحب هذا. اتركيه عندي متى شئت.

قادت سابينا سيارتها إلى منزل روزي، والغضب يغلي في داخلها إلى درجة الاحتراق... ما كان يجب أن تستمع إلى سمّ هذه المرأة... لكن هذا لا يعذر روزي لتقول ما قالته وستضع بنفسها حداً لهذا الحقد المنتقم إلى الأبد.

بدت الدهشة على روزي عندما دخلت سابينا غرفة الاستقبال. فوقفت ببطء وقالت بلؤم:

ـ هل جئت لتودعيني؟

فردت سابينا نظراتها اللئيمة بمثلها:

ـ لا!

ـ لا؟... إذن ليس لديك أية كرامة كما ظننت.

ـ تعنين أنني أعقل مما ظننت... لا أدري كيف أصغيت إليك، ولا أفهم ما ترغبين في تحقيقه... لكنني جئت لأقول لك في وجهك إنك كذابة... شريرة... لئيمة... كاذبة حقودة!

لم يظهر على المرأة الأخرى تأثراً يذكر، بل أجابت:

ـ أهذا ما قاله لك باتريك؟

ـ باتريك لم يذكر شيئاً. لأنني لم أزعجه بأكاذيبك.

ـ إذن من الأفضل أن تفعلي.

ـ لماذا؟ حتى يحتقرني لأنني استمعت إليك؟

فاحمر وجه روزي:

ـ إذا كانت هذه هي الحقيقة...

ـ تعرفين جيداً أنها ليست الحقيقة. باتريك رجل قاس، لكنه شريف... لا يمكن أن يكون قد لمس كيم.

ـ ألم يلمسها؟

ـ لا! سأقول لك هذا مرة واحدة روزي... ومن الخير لك أن تصغي إليّ... لا أريد أبداً أن تتكرر مثل هذه الأكاذيب القذرة على مسمع أحد، وإذا فعلت فستندمين!

فسخرت روزي:

ـ أتهددينني؟

ـ صدقي ما تريدينه! لكنني أتمنى من كل قلبي ألا تكوني قد دمرت زواجي من باتريك...

ـ وبماذا تهددينني؟

فقالت سابينا بصوت منخفض لكن خطير:

ـ أعتقد أن زوجك وطفلتيك يحبونك... فكري في ما سيفكرون لو علموا أنك حقود معقدة.

فضحكت روزي بحدة:

ـ اخرجي من هنا! اخرجي!

ردت سابينا بهدوء:

ـ سأخرج... لكن فكري في إنذاري... لا أفهم سبب رغبتك في تدمير حياة الآخرين وسعادتهم... لكن مرارة مثل مرارتك يجب كبحها وإلا ستدمر حياتك. فكري روزي... وحافظي على ثروتك، على زوجك وطفلتيك الجميلتين.

لم ترد روزي... لكن سابينا علمت من شحوب وجهها أن

ما قالته بلغ هدفه... وكل ما تأمله أن ينجح! فكراهية أمها كانت بسيطة غير معقدة... لكن مشاعر روزي عميقة مدمرة... وقد تحتاج إلى مساعدة طبيب نفسي!

لكن تشويه أمر أكاذيب روزي لم يساعدها على إيجاد مكان باتريك. واعتقادها بأنه قضى ليلته مع امرأة أخرى أخذ يتحول إلى يقين شيئاً فشيئاً.

توقفت في المحلات فاشترت بعض الأغراض لفيليب ثم عادت إلى منزل حماتها وهي متأكدة من أن ما حدث بينها وبين روزي لن يُشاع بين الناس. اعتذرت من حماتها قبل أن تحمل فيليب راجعة إلى المنزل.

استمرت في القيام بعملها الروتيني اليومي، تعتني بفيليب وتعطي التعليمات إلى مدبرة المنزل بشأن الطعام الذي سيعد خلال الأسبوع برمته.

لكنها كانت دون وعي تتساءل ما إذا كانت ستتناول هذا الطعام.

استلقت تستريح حين كان فيليب يأخذ قيلولته بعد الظهر. ولم تستيقظ إلا عصراً فوجدت أنها ليست وحدها في غرفة النوم! فقد استطاعت في عتمة الغرفة المسدلة الستائر أن ترى طيفاً... إنه باتريك!

ناضلت كي تبعد عنها شبح النعاس فسألت بصوت أجش:

ـ لقد عدت؟

فتحرك في الكرسي.

ـ أجل... فهذا منزلي... أتحبين أن أطلب من السيدة كليفس بعض الشاي؟

جف لسانها لا بسبب العطش! بل لأنه عاد إلى منزله... لا تستطيع التصديق أنه هنا. ومع أنه ما زال بعيداً عنها، إلا أنه لم يعد غاضباً... وقالت:

ـ لا... شكراً لك... باتريك... علينا أن نتحدث...

ـ أقبل على أن يتم الآن فوراً.

إذا كانت هي تعبة من قلة نوم الليل فتعبه يبدو أضعافاً مضاعفة.

ـ أين الطفل؟ (سألت).

ـ إنه مع السيدة كليفس.

دنا منها وجلس على طرف السرير:

ـ غضبي يسوّل إلى نفسي أن أخنقك!

ـ أعلم... وأنا آسفة... لا عذر لما فعلت.

ـ لا عذر؟... لا عذر؟

ـ لا... لا أستطيع تفسير سبب تصرفي... فكل ما أريدك أن تعرفه أنني تجاوزت ذلك التوتر الآن... وإذا سامحتني... فأنا... أنا أرغب في... أن أعود... زوجتك المطيعة ثانية.

ضاقت عيناه فأصبحتا كنقطتي جليد:

ـ لماذا لن تفسري؟ ألا أستحق التفسير؟

ـ يا إلهي بلى... لكنني لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لا أستطيع!

فلمعت عيناه بشكل خطير:

ـ أيتها الغبية الحمقاء! كيف لك أن تحميها بعد أن سببت لنا هذا الضرر كله.

اتسعت عينا سابينا وهي ترى تعابير وجهه الشرسة.

ـ ما... ماذا تعني؟

فتنهد وقال لها بصراحة:

ـ زارتني روزي... وقصت عليّ كل ما أخبرتك به... كل شيء...

نهض عن السرير ليذرع الغرفة، فأنزلت ساقيها إلى الأرض لتجلس وتنظر إليه:

ـ روزي زارتك؟ كيف عرفت مكانك؟

ـ ليس هذا صعباً... فأنا عادة في مكتبي عند الساعة الثانية كل يوم أربعاء.

ـ مكتبك... لم أفكر في التفتيش عنك فيه.

ـ ولماذا تفتشين عني؟ كنت تريدين السفر، أتذكرين؟

ـ اسمع... أظن أن شقيقتك مريضة.

ـ عرفت هذا الآن. وعرفت هي كذلك... أشكر الله.

ـ عرفت؟

فتنهد:

ـ أجل... فهي لم تشأ زيارتي لمزيد من المتاعب سابينا بل لتحاول تصحيح غلطة خطيرة... مهما كان ما قلته لها هذا الصباح، فقد أثر فيها وردّها إلى رشدها... وستسعى إلى المعالجة النفسية.

ـ لكن لماذا هي هكذا؟

ـ ليست وحدها المسؤولة عمّا هي عليها... كلنا نلام. منذ سنة ونصف خسرت طفلاً... كانت تعمل كعادتها دون أن تستريح ولم تعرف بحملها إلا بعد فوات الأوان فكان أن خسرت صبياً بعد ثلاثة أشهر من الحمل.

ملأت الدموع عيني سابينا وهي تتصور العذاب الذي مرت به المسكينة. ولم يلاحظ باتريك دموعها إلى أن قالت:

ـ مسكينة روزي!

ـ أجل... وأظنها عندما ماتت كيم، وأصبحت أنت أماً لفيليب كرهتك لأن كيم كانت حاملاً لك.

ـ وهل... ستكون على ما يرام؟

ـ أجل بالمعالجة النفسية وببعض العطف من عائلتها... والآن نأتي على ذكر الكذبة التي اختلقتها عني وعن كيم.

ـ كنت غبية... عرفت هذا عندما تركت المنزل بالأمس! كيم زوجة أخيك!

ـ لكنها لم تكن سعيدة.

ـ ليس إلى هذا الحد، رغم المعاملة التي عاملتها إياها أمك.

ـ كان الأمر واضحاً بالنسبة لي! لقد كان تشارلز ابن أمي المدلل وتعتبر أن ما من امرأة تصلح أن تكون له لذلك لم تنظر إلى حبهما العميق.

ـ إذن لم يكن حملها بفيليب وسيلة للحفاظ على زواجها.

ـ هذا شيء آخر استنتجه أعضاء عائلتي الفاتنة. لكن ماذا أحسست نحوه عندما ظننتني أباه؟

ـ أحببته كالعادة.

ـ وأنا...؟ ماذا كان شعورك نحوي؟

الصدق... عليها أن تعطيه الصدق.

ـ لقد كرهت التفكير في علاقتك بكيم وكرهتك لأنني أعتقدتك تعتبرني بديلاً عنها...

ـ يا إلهي؟ أوصل بك التفكير إلى هذا الحد؟

ـ أجل... ولقد مزقتني هذه الأفكار... أعلم أنك لا تحبني... ولكنني كنت أعتقد أن ما بيننا هو لي... وليس... اوه ما أشد ما كان عليه غبائي!

ـ وماذا بيننا سابينا؟ مجرد علاقة زوجية جيدة؟

ـ نعم علاقة زوجية... وحبي لك، أحبك باتريك... حتى قبل أن أتزوجك... أحببتك منذ اليوم الأول.

بدا للحظات أنه يرفض النظر إليها... كان غارقاً في تفكير عميق. ثم تنهد عميقاً.

ـ صراحتك أذهلتني دائماً... فهذا شيء لم اعتده من امرأة.

ـ لكنني لم استخدم جسدي لابتزك... أما المرأة الأخرى...

ـ إنها أمي... لقد راقبتها تسيطر وتتحكم بأبي منذ أن بدأت أفهم الحياة... يا إلهي ما هي هذه العائلة التي تزوجت منها أنت وكيم! فأمي... كانت تستخدم جسدها لتسيطر على زوجها. وشقيقتي متقوقعة في خوف داخلي وشقيقي لم يكبر يوماً، و... والمسخ خالٍ من العواطف... أقصد به ذاتي.

ـ باتريك!

إذن تستنتج مما قاله أن لا امرأة أخرى في حياته، وأن الصديق الذي تكلم عنه هو أبوه!

ـ اوه... هذه هي الحقيقة سابينا... أمي أنجبت أولادها تدريجياً... على دفعات كل أربع سنوات، وكان أبي يعبد الأرض التي تسير فوقها، فاستغلته لتسيطر عليه!

www.liilas.com

ـ ربما كانت تحبه باتريك، لقد أمضت زمناً وهي أرملة...

ـ عشرين سنة. أنت على حق... لقد أحبته، بطريقتها لكنه حب مدمر. لا أريده لنفسي... عندما تزوجنا ومنحتني نفسك كاملة طاهرة، عرفت أنك تحبينني. وخفت من ذلك الحب، وما قد يفعله بي.

ـ باتريك؟

فاستدار إليها مبتسماً:

ـ أنت لم تسمعي بعد لماذا كرهتك. جعلتني معرفتي بك وبمشاعرك أختبر مشاعري نحوك، ولم يعجبني ما اكتشفت. أظن أن الأمر بدأ يوم جئنا إلى انكلترا. يومذاك أبديت قلقاً علي لأنك رأيت مدى تعبي! وطلبت مني الراحة. كان الجميع يؤمن أنني قادر على الاستمرار إلى الأبد دون توقف. وكانوا يعتقدون أنني غير متأثر بما حدث لشقيقي وزوجته. أنت وحدك شاهدت تأثري... قبل أن يسافرا حدث شجار في العائلة... كيم كانت تزداد تعاسة، وهو لا يملك الإرادة على التحرر من تحكم العائلة به... فتدخلت وكلفته بإدارة فرع الشركة في أميركا، لذا سافرا لكن إلى غير رجعة. وعندما اكتشفت أمي سفرهما غضبت غضباً شديداً...

ـ لكنني واثقة أنهما كانا سعيدين بالسفر.

ـ وأنا واثق كذلك. ومع ذلك لم استطع التغلب على الشعور بالذنب. ربما لو لم آمره بإدارة فرع الشركة في أمريكا لما سافرا... ولكانا الآن على قيد الحياة. ثم عدت معي إلى هنا. ولم استطع منع رغبتي فيك. وقلت لنفسي إنها مجرد رغبة. لكن بدل أن أقيم علاقة معك، طلبتك للزواج دون أن أدري السبب. أردتك ولم أكن مضطراً حتى للاعتراف. ثم بعد

زواجنا لم أجد سبباً كذلك للاعتراف بأي نوع من الالتزام العاطفي. لكن عندما انقلبت ضدي منذ ثلاثة أيام... لم أعرف ماذا أفعل. لم أفهم... ولم استطع التوقف عن الرغبة فيك... ففضلت الخروج من المنزل.

ـ وأين ذهبت؟

ـ أمضيت ليلتي في مكتبي على الأريكة التي أمضيت ليلتي فيها عندما عدنا من شهر العسل. كنت خائفاً من فقدك!

فوقفت سابينا تركض نحوه، وتلف ذراعيها حول عنقه، وتضغط رأسها على صدره.

ـ لن تفقدني... ولست بحاجة لقول شيء... لست بحاجة إلى كلمات... بإمكاني أن أقول عنا معاً... أحبك باتريك... أحبك كثيراً.

أطبقت ذراعاه حولها:

ـ لكنك تستحقين الكلمات.

ـ لا أحتاجها بل أحتاجك أنت.

ـ وأنا كذلك... فبدونك أظنني قد أموت!

في الفراش تفوه باتريك أكثر من مرة بالكلمة التي طالما تاقت إليها منه وقد ردّدها إلى أن غرقا في الحب.

بعد ساعتين قالت له:

ـ باتريك. لدي شيء أعترف به إليك.

ـ اعترفي!

ـ عندما قالت روزي... ما قالته... كنت في ظروف مميزة... لذلك صدقتها.

ـ ظروف خاصة؟

ـ هه! كنت في الأونة الأخيرة... حساسة ومتوترة...

www.liilas.com

و...

ـ متوترة...؟

ـ حسناً هناك سبب لهذا! فلدي شيء كنت سأذكره أمام الجميع في حفلة عمادة فيليب... لكن روزي أفسدته بكذبها. شيء كنت ستشارك الجميع به.

ـ لكنني شاركت الجميع بالكاتو الذي حضرته.

ـ باتريك كن جاداً!

بذل جهده ليحافظ على رزانته.

ـ حسناً... لكنني سأقول لك مرة أخرى إنني أحببتك أولاً.

ـ لا تتوقف عن هذا... اسمعني باتريك. أنا... أنا...

ـ حسناً انطقي يا امرأة. فلدي ثلاثة ليال من الحرمان أريد التعويض عنها.

ـ حسناً افعل هذا الآن، فبعد بضعة أشهر سأصبح سمينة فتعجز عندها عن الاقتراب مني!

فغر باتريك فاه وأخذ ينقل نظره من وجهها إلى معدتها التي ما زالت ملساء... فضحكت:

ـ لا تظهر معالمه بعد. لكن بعد شهر أو شهرين حينها ستكون ابنتك قد بدأت تركلني كلاعب الكرة.

ـ اسمها كرة القدم... ندعوها هنا كرة القدم.

فزفرت بغضب:

ـ أهذا كل ما عندك لتقوله بشأن طفلتك؟

ـ وكيف تعرفين أنها ستكون طفلة؟

فنظرت إليه متعالية:

ـ لأنني قررت هذا. فصبي آخر يرجح كفة الرجال في عائلة

كيندل فتصبح ثلاثة ذكور وامرأة واحدة. وهذا غير عادل.

ـ لكنك قادرة على مواجهة جيش كامل منا... بحبك وإخلاصك.

ـ كيف تشعر حقاً بشأن الطفل؟

ـ بدأت أحبه. كما أحبك... وأحب العالم كله.

ـ أعلم... لكن ستضطر لكبح جماح حبك.

ـ أيتها الخليعة.

ـ أنت المجنون الخليع...

ـ لا... أنا مجنون الحب... أحبك كثيراً سابينا... ولا أريد إلا الاعتناء بك وبأولادنا... ثم أن فيليب سيحتاج إلى أكثر من شقيقة واحدة ليفسدها دلالاً.

ـ سيكون له ذلك بكل تأكيد...

وتوقفا عن المزاح ليبدأ الجد!

● ● ●

www.liilas.com